

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مدنية وآياتها مائتان

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما: **الأول**: ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جلَّ وعلا. **الثاني**: التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.. أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمات لإثبات الوحدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم «النصارى» الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتفريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب. أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهُزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثييط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فضلها: عن النواس بن سميان قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلْ عِمْرَانَ»^(١)

التسمية: سميت السورة بـ «آل عمران» لورود لعل الأولى: لمجيء ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلى من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى ﷺ.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا أُولَؤُلَاءِ ٧) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ٩)

اللغة: ﴿الْحَيُّ﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ التصوير: جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿الْأَرْحَامُ﴾ جمع رحم وهو محل تكوّن الجنين ﴿مُحْكَمَاتٌ﴾ المحكم: ما كان واضح المعنى قال «القرطبي»: «المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور، هذا أحسن ما قيل فيه»^(١) ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زَيْغٌ﴾ ميلٌ عن الحق يقال: زاغ زغيًا أي مال ميلًا ﴿تَأْوِيلِهِ﴾ التأويل: التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه^(٢). ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ الراسخ: الثبوت في الشيء والتمكّن منه، قال الشاعر:

لَقَدْ رَسَخْتُ فِي الْقَلْبِ مِنِّي مَوَدَّةٌ لِلْيَلَى أَبَتْ أَيَّامُهَا أَنْ تُغَيَّرَا^(٣)

سَبَبُ النُّزُول: نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكبًا، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابرهم «عبد المسيح» أميرهم و «الأيهم» مُشِيرُهُمْ^(٤) و «أبو حارثة بن علقمة» حَبْرُهُمْ، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارة: عيسى هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى، وتارة هو «ابن الله» إذ لم يكن له أب، وتارة إنه «ثالث ثلاثة» لقوله

(١) «القرطبي» ٩/٤.

(٢) (ش): قوله: التأويل التفسير فيه نقص؛ لأن التأويل قد يراد به التفسير، وقد يراد به الحقيقة التي يثول إليها الشيء والمراد هنا المعنى الثاني.

(٣) «القرطبي» ١٩/٤.

(٤) (ش): أشار عليه بكذا: أرشده، ونصحه أن يفعل كذا، مُبَيِّنًا ما فيه من الصواب.

تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال «فعلتُ وقلتُ» فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت»! قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا ويشبه أباه» قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم؟» قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث»! قالوا: بلى فقال ﷺ: «فكيف يكون كما زعمتم؟» فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيّفٍ وثمانين آية^(١).

التفسير: ﴿الَمْ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدّم في أول البقرة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ربّ سواه ولا معبود بحق غيره ﴿الْحَى الْقَيُّومُ﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون عباده ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ أي نزل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ من قبل أنزل هدى للناس ﴿أَي أَنزَلَ الْكِتَابِينَ الْعَظِيمِينَ﴾ «التوراة» و «الإنجيل» من قبل أنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقيل: المراد بالفرقان القرآن وكرّر تعظيماً لشأنه^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ﴾ أي غالب على أمره لا يعزب، منتقم ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمرٌ من الأمور، فهو مطلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكرٍ وأنثى، وحسن وقبيح ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي لا ربّ سواه، متفرد بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنّبّه تعالى بكونه مصوراً في الرحم، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هنّ أصل الكتاب وأساسه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ أي وفيه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة

(١) «الفخر الرازي» ١/٧، ١٦٥، و«ابن كثير المختصر» ١/٢٨٨.

(ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾.

على كثير من الناس، فمن ردّ التشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي فأما من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال فيتبع التشابه منه ويفسره على حسب هواه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي طلباً لفتنة الناس في دينهم، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرِّمٍ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(١) على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] الدالّ على أنه عبد من عباد الله ورسوله من رسله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يعلم تفسير التشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده^(٢) ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالتشابه وأنه من عند الله ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي كل من التشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله، قال تعالى ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي لا تملها عن الحق ولا تضلنا ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب «يوم الحساب» الذي لا شك فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعِمْكَادَ﴾ أي وعده حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ﴾ إلى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿[النساء: ٨٧] ؟!

(١) (ش): ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها، وكلّ لها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام، فنفخ في فرج مريم عليها السلام فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام.

(٢) (ش): هنا تناقض مع ما سبق أن قاله المؤلف من أن التشابه يُردُّ إلى المحكم، فإن كان لا يعلم تفسير التشابه ومعناه الحقيقي إلا الله فكيف يُردُّ إلى المحكم.

للمفسرين في الوقوف على ﴿اللَّهُ﴾ من قوله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿والراسخون في العلم﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إلا الله﴾ لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكنهيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته. وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الراسخون﴾ على ﴿اللَّهُ﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه وردّه إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كل﴾ من المحكم والتشابه ﴿من عند ربنا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض.

البلاغة: ١ - ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب.

٢ - ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عما تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتعاره.

٣ - ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة ثم عمّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص.

٤ - ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال الشريف الرضي: هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له، وكأن سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمة^(١).

٥ - ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وهذه استعارة المراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم^(٢).

الفوائد: الأولى: روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ الآية ثم قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٣).

الثانية: قال «القرطبي»: أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم: أن المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل، قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدجال، وعيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور^(٤).

الثالثة: آيات القرآن قسمان: محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة، فإن قيل: كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كله محكم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [الآية: ١] وما جاء في (الزمر) أن القرآن كله متشابه ﴿زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الآية: ٢٣]؟! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدده فقله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١] بمعنى أنه ليس به عيب، وأنه كلامٌ حق فصيح الألفاظ، صحيح المعاني وقوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً، فلا تعارض بين الآيات.

(١) «تلخيص البيان» ص ١٧.

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٧.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) «القرطبي» ٩/٤.

الرابعة: روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ما هو؟ قال قوله تعالى: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية، وفي النازعات ذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، وفي فصلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] في النفخة الأولى ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فختم الله على أفواههم فننطق جوارحهم بأعمالهم لهم فعند ذلك عرف أن الله لا يكتُم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين فذلك قوله ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين، وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] فسمي نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك، ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله.

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ⑩
كَذَّابٍ ⑪ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑫ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ⑬ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ⑭ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ⑮ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ⑯ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ⑰ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ⑱

المناسبة: لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يشتمهم الله على الإيمان، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين، ويبن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومُتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خيرٌ للأبرار.

اللغة: ﴿تُغْنِيكَ﴾ الإغناء: الدفع والنفع ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ القود بفتح الواو الحطب الذي توقد به النار، وبالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿كَذَّابٍ﴾ الدَّابُّ: العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جدَّ فيه واجتهد ثم أطلق الدَّابُّ على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمداً طويلاً صار له عادة ﴿آيَةً﴾ علامة ﴿فَعَةً﴾ جماعة، وسميت الجماعة من الناس فئةً لأنه يُفَاء إليها في وقت الشدة^(١) ﴿لَعِبْرَةً﴾ العبرة: الاتعاظ ومنه يقال: اعتبر، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء، ومنه عبور النهر، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زَيْنٌ﴾ التزيين: تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوة: ما تدعو النفس إليه وتشتهيه، والفعل منه اشتهى وتُجمع على شهوات ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو العُقْدَةُ الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ المضعفة وهو التأكيد كقولك ألوف مؤلفة وأضعاف مضاعفة قاله «الطبري»، وروي عن الفراء أنه قال: القناطر جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطر^(٢) ﴿الْمُسَوِّمَةِ﴾ المعلمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجتلب الأنظار وقيل المسوِّمة: الراعية وقال مجاهد وعكرمة: إنها الخيل المُطَهَّمَةُ^(٣) الحسان^(٤) ﴿الْمَقَابِ﴾ المرجع يقال: أب الرجل إياباً وماباً قال تعالى ﴿إِنْ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ﴾ ﴿يَالْأَسْحَارِ﴾ السَّحَر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

سَبَبُ النُّزُول: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ جَمَعَ الْيَهُودَ فَقَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا». قَالُوا يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا - يَعْنِي جُهَالًا - لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ وَأَنْتَ لَمْ تَلَقْ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ لِّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾

(١) (ش): أي يُرْجَعُ إليها في وقت الشدة.

(٢) «القرطبي» ٣١/٤.

(٣) (ش): خَيْلٌ مُطَهَّمَةٌ: مُقَرَّبَةٌ مُكْرَمَةٌ عَزِيزَةٌ الْإِنْسَانِ.

(٤) «تفسير الرازي» ٧/٢١١.

الآية (١) «(٢)».

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسَجَّر وتوقد به النار ﴿كَذَّابٌ﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون، وصنيعهم مثل صنيعهم ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي أليم العذاب شديد البطش، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقَهُمْ﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿سُتُعْلَبُونَ﴾ أي تهزمون في الدنيا ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وَيُبَسَّسَ الْمَهَادُ﴾ أي بُسَّس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿فِي فِتْنَةِ الْتَقَاتِ﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم مرتين ﴿رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أي رؤية ظاهرة مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال، وقيل: المراد يرى المؤمنون ضعفيهم في العدد، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يقوي بصره من يشاء ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ﴾ أي لآية وموعظة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة، ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده كقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» ٢٦٨/١ و«أسباب النزول» للواحدي ص ٥٤.

(ش): أخرجه ابن جرير، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند حسن.

(٢) (ش): رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

(٣) (ش): «المهاد»: الفراش الممهّد للنوم. مَهْدُ الْفِرَاشِ امْتَدَّه: بَسَطَهُ وَوَطَّاهُ وَجَعَلَهُ لِيُنَاسِئَ السُّهْلَ الْقَعُودُ وَالنَّوْمُ عَلَيْهِ، أَعَدَّهُ وَهَيَّاهُ.

النِّسَاءِ ﴿١﴾ أَي حُسْنِ إِلَيْهِمْ وَحُبِّ إِلَى نفوسهم المِيل نحو الشهوات، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، والالتذاذ بهن أكثر وفي الحديث «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(١) ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿وَالْبَيْنِ﴾ وإنما نُنِي بالبنين؛ لأنهم ثمرات القلوب وقررة الأعين كما قال القائل:

وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَأَمْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمَضِ
وقدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿وَالْقَطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنْكَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي الأموال الكثيرة المكدّسة من الذهب والفضة، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات، والمرء يتركب الأخطار في تحصيله ﴿وَتُحْبَوْنَ أَمْالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢] والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خُصَّ بالذكر ﴿وَالْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المَرْكَبُ والمَطْعَمُ والزينة ﴿وَالْحَرْثُ﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي قل يا محمد أخبركم بخير مما زُيِّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟ والاستفهام للتقرير ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزّهة عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوّطن ولا يتبولّن ولا يحضن ولا ينفسن، ولا يعترين ما يعترى نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأي رضوان، وقد جاء في الحديث «أَحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٢) ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِالْعِبَادِ﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلّاً بحسب ما يستحقه من العطاء. ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا﴾ أي آمنا بك وبكتبك ورسلك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي اغفر لنا بفضلِكَ ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء، والمطيعين لله في الشدة والرخاء ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي وقت السحر قبيل طلوع الفجر^(٣).

(١) أخرجه البخاري.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٢١.

البَلَاغَةُ: ١- ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ٢- ﴿شَيْئًا﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أي نفع ولو قليلاً. ٣- ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه. ٤- ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم. ٥- ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ الأصل «آية لكم» وقدم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿وَرَضَوْنَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ١٦٢] ٦- وقوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ و ﴿رَأَى الْعَيْنِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق ٧- ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ يراد به المشتبهات قال الزمخشري: عبر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات، وتنبهها على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء. ٨- ﴿يُخَيَّرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ إيهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ٩- ﴿اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال «أبو السعود»: التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم. ١٠- ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص.

فَائِدَةٌ: الأولى: من المزين للشهوات؟ قيل: هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] وتزيين الشيطان: وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل: المزين هو الله ويدل عليه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وتزيين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر: «اللهم لا صبر لنا على ما زينتنا لنا إلا بك»^(١).

الثانية: تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن النفس أصفى، والروح أجمع، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول، قال ابن كثير: كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع: هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح^(٢).

قال الله تعالى:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا عِنْدَ اللَّهِ وَلِإِسْلَامِهِمْ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ

(١) رواه البخاري.

(ش): لم أجده في البخاري بهذا اللفظ، لكن رواه البخاري مُعَلِّقًا بصيغة الجزم بلفظ آخر فقال: قَالَ عُمَرُ اللَّيْلَ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا رَزَيْتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٢٧١.

يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى فَوَاقٍ مِنْهُمْ وَمُتَّعُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المناسبة: لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا﴾ أرفده بأن بين أن دلائل الإيمان ظاهرة جليلة فقال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم بين أن الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً، وإعراضهم عن قبول حكم الله.

اللغة: ﴿شَهِدَ﴾ الشهادة: الإقرار والبيان ﴿بِالْقِسْطِ﴾ العدل ﴿الَّذِينَ﴾ أصل الدين في اللغة: الجزاء ويطلق على الملة وهو المراد هنا ﴿الْأَسْلَمُ﴾ الإسلام في اللغة: الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأثير: المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم: سلم الشيء لفلان أي خلس له؛ فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حَاجُّوكَ﴾ جادلوك ونازعوك ﴿وَعَرَّهُمْ﴾ فتنهم ﴿يَفْعَلُونَ﴾ يكذبون.

سبب النزول: لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالوا: وأنت أحمد؟ قال: نعم، قالوا: نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني، فقالوا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فأسلم الرجلان^(١) وصدقوا برسول الله ﷺ.

التفسير: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بين وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية، قال الزمخشري: شُهِتَ دلالة على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿وَأَلْمَلِكَةُ﴾ وأولو العلم أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قَائِمًا﴾ بالقسط أي حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُ﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي وما اختلف

(١) (ش): موضوع، ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

(٢) «القرطبي» ١/ ١٤، و«البحر المحيط» ٢/ ٤٠١.

اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام، إلا بعد أن علموا بالحجج النيرة والآيات الباهرة حقيقة الأمر، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبار وعناد، فكانوا ممن ضلَّ عن علم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسدًا كائنًا بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعًا فيجازيه على كفره ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدين فقل لهم: أنا عبدُ الله قد استسلمتُ بكليتي لله، وأخلصت عبادتي له وحده، لا شريك له ولا يد ولا صاحبة ولا ولد ﴿وَمَنْ اتَّبَعَني﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله هدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِالْعِبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا فقال عليه السلام لليهود: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله «فقالوا: معاذ الله، فقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله» فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبدًا وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ (١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يكذبون بما أنزل الله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله، قال ابن كثير: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبيٍّ من أول النهار، وأقاموا سوق بقلهم من آخره» ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجه للمهين، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله، قال تعالى مبينًا عاقبة إجرامهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه. ثم ذكر تعالى طرفًا من لجاج وعناد أهل الكتاب

(١) «تفسير أبي السعود» ٣٢٢/١.

(ش): موضوع، ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في «العجاب في بيان الأسباب». وهو في «تفسير أبي السعود» بدون سند بصيغة التمريض «رُوي» التي ذكرها المؤلف.

فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب فالصيغة صيغة تعجب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري: يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيبًا وافراً من التوراة ﴿يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهو استبعاد؛ لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه، وجملة ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا: لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما، فغضبوا فشنع تعالى عليهم بهذه الآية ^(١) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَنَا أَلَنَّا إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افتراءهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة - أربعين يوماً - مدة عبادتهم للعجل ﴿وَعَرَّضُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب ! وهو استعظام لما يذهبهم ^(٢) من الشدائد والأحوال ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي نالت كل نفس جزاءها العادل ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب.

البلاغة: ١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُ﴾ الجملة معرفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام.

٢ - ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله «أوتوا الكتاب» لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة.

٣ - ﴿بَيَّأَنَتِ اللَّهُ فَايَكُ اللَّهُ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس.

٤ - ﴿أَسْلَبْتُ وَجْهِي﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٥ - ﴿فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى «الأسلوب التهكمي» حيث نزل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُتَنِفِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٣٨] وهو أسلوب مشهور.

فائدة: قال «القرطبي»: في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، ويكفي في شرف

(١) انظر القصة في «صحيح البخاري» كتاب التفسير.

(٢) (ش): دهم الأمر فلاناً: فجأه، أنه، غشيه وفجأه.

العلم قوله لنبية ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقوله ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(١) وفي حديث ابن مسعود أن من قرأ قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى: عبدي عهد إليَّ عهدًا وأنا أحقُّ من وقِي، أدخلوا عبدي الجنة^(٢).
لطيفة: من أطرف ما قرأت في بيان فضل العلم تلك المحاوراة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد:

عِلْمُ الْعَلِيمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا	مَنْ ذَا الَّذِي فِيهِمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرَفَا
فَالْعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ	وَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرِفَا
فَأُفْصِحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحًا وَقَالَ لَهُ:	بِأَيِّنَا اللَّهُ فِي فُرْقَانِهِ إِنْصَفَا
فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ	وَقَبِلَ الْعَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وَأَنْصَرَفَا

قال الله تعالى:

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمُلْكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ
يَسِيرُكَ الْحَيُّ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ
وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ
﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشِّرُوا بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وأمر رسوله بالدعاء والابتغال إلى الله بأن يعز جند الحق وينصر دينه المبين.

اللغة: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أصله يا الله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشددة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿وَتَنْزِعُ﴾ تسلب ويعبر به عن الزوال يقال: نزع الله عنه الشر، أي أزاله: ﴿تُولِجُ﴾ الإيلاج: الإدخال يقال: ولج يلج ولوجًا ومنه ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمَرِ الْحَيْاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ﴿أَمَدًا﴾ الأمد: غاية الشيء ومنتهاه وجمعه أمداء ﴿تُقْلَةً﴾ تقيَّة وهي مداراة الإنسان مخافة شره.
سبب النزول: أ - لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعده أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون

(١) (ش): رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن وصححه الألباني.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير». (ش): وضعفه الألباني.

واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم!! هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأُنزل الله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾ الآية^(١).

ب - عن ابن عباس أن «عبادة بن الصامت» - وكان بدرياً تقياً - كان له حلفٌ مع اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة: يا نبي الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأُنزل الله ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية^(٢).

التفسير: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أي قل: يا الله يا مالك كل شيء ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿يَبْدُوكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت كل على كل شيء قدير ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير، وقال «الطبري»: «وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال: يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميته، ويخرج النطفة الميته من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء» ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضيق. ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتركوا أوليائه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبة الله وبين محبة أعدائه قال الزمخشري: «نُها أن يوالوا الكافرين لقربة بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يُتصادق بها ويُتعاشر ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي من يوال الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم باللسان دون القلب، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي «إِنَّا لَنَبْشُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامٍ

(١) «القرطبي» ٥٢/٤.

(ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٢) «روائع البيان» ٣٩٩/١.

(ش): ضعيف جداً، ذكره الواحدي في «أسباب النزول».

وقلوبنا تلعنهم»^(١) ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم الله عقابه الصادر منه تعالى^(٢) ﴿وَالِإِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عامل بعمله ﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا يخفى عليه خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السماوات والأرض ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره، وهو تهديد عظيم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضرًا لا يغيب عنه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فإن كان عمله حسنًا سره ذلك وأفرحه ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي وإن كان عمله سيئًا تمنى أن لا يرى عمله، وأحب أن يكون بينه وبين عمله القبيح غاية في نهاية البعد أي مكان بعيد كما بين المشرق والمغرب ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يخوفكم عقابه^(٣) ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقا تحبون الله فاتبعوني لأنني رسوله؛ يحبكم الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله»^(٤) ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا

(١) (ش): (ليس بحديث).

ولكن رواه البخاري معللاً بصيغة التمرير التي تدل على الضعف فقال: وَيُذَكِّرُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ، وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَلْعَنُهُمْ». (نكثير): نبسم حتى تظهر أسناننا. بش بفلان. بش لفلان: فرح به وسرّ ولقيه بوجه ضاحك. والبشاشة: طلاقة الوجه.

(٢) (ش): الواجب على المسلم في باب الأسماء والصفات أن يثبت ما أثبتته الله تعالى لنفسه وما أثبتته له رسوله ﷺ، والمسلم يعتقد اعتقاداً جازماً أنه تعالى ﴿ليس كمثل شيء﴾ فما يثبتته المسلم لربه تعالى من الصفات لا يماثل صفات المخلوقات. ولفظه «النفس» ثابتة لله تعالى في كتابه الكريم وفي سنة النبي ﷺ الصحيحة، ولذا فلا يسع المسلم إلا إثباتها: و«النفس» في الآيات والأحاديث الصحيحة ليست ذاتاً منفكة عن الصفات، وليست صفة من صفات الله تعالى كالسمع والبصر، بل معناها في الآيات والأحاديث: ذاته تعالى المقدسة. قال شيخ الإسلام: «ومعلوم أن نفس الله، التي هي ذاته المقدسة، الموصوفة بصفات الكمال، ليست مثل نفس أحد من المخلوقين» (درء تعارض العقل والنقل ١٠/ ٣٠٨). وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «وليس النفس صفة كسائر الصفات كالسمع والعلم والقدرة، فالنفس يعني: الذات، فقلوه (وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) يعني: ذاته. (شرح الأربعين النووية ص ٢٢٨).

(٣) (ش): راجع الهامش السابق.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٧.

يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨].

البلاغة: جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي:

١ - الطباق في مواضع مثل «تؤتي وتنزع» و «تعز وتذل» و «الليل والنهار» و «الحي والميت» و «تخفوا وتبدوا» وفي «خير وسوء» و «محضرًا وبعيدًا» .

٢ - والجناس الناقص في «مالك الملك» وفي «تحبون ويحبكم» و جناس الاشتقاق بين «تتقوا وتقاة» وبين «يغفر وغفور» .

٣ - رد العجز على الصدر في ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ .

٤ - التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ .

٥ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي من تشاء أن تؤتیه ومثلها وتنزع، وتعز، وتذل .

٦ - ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ قال في «تلخيص البيان»: وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطف الممازجة وشديد الملازمة .

٧ - ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحي والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت^(١) والله أعلم .

فائدة: في الاقتصار على ذكر الخير ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ دون ذكر الشر تعليم لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه خلقًا وتقديرًا ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]^(٢) .

تنبيه: روى مسلم في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا

(١) هذا على رأي من فسر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ وهو قول الحسن البصري .

(ش): وتكملة الآية: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

(٢) (ش): عَنْ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُ عَنِّي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَاتِي لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَاتِي إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رواه مسلم).

جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلُ فَيَقُولُ: «إِنِّي أَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ»، فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٢﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ إِنِّي لَأَكِلُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٨ فَنَادَاهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِ وَالْإِبْكَرِ ٤١

المناسبة: لما بين تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم، بين علو درجات الرسل وشرف مناصبهم، فبدأ بآدم وأولهم، وثنى بنوح أبي البشر الثاني، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيهم عيسى عليه السلام، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص: قصة ولادة مريم، وقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير.

اللغة: ﴿اصْطَفَى﴾ اختار وأصله من الصفوة، أي: جعلهم صفوة خلقه ﴿مُحَرَّرًا﴾ مأخوذ من الحرية وهو الذي يُجعل حراً خالصاً، والمراد الخالص لله عزَّ وجلَّ الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أُعِيدُهَا﴾ عاذ بكذا: اعتصم به ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ الكفالة: الضمان يقال كفَّلَ فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بمصالحه وفي الحديث «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»^(١) ﴿الْمِحْرَابُ﴾ الموضع العالي الشريف: قال أبو عبيدة: سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد^(٢) ﴿وَحَصُورًا﴾ من الحصر وهو الحبس، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات، وللمفسرين في معناه قولان نختار منهما ما اختاره المحققون: أنه الذي لا يأتي النساء لا لعجز

(١) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ).

(٢) «البحر المحيط» ٢/ ٤٣٣.

بل للعفة^(١) ﴿عَاقِرٌ﴾ عقيم لا تلد. والعافر من لا يولد له من رجل أو امرأة ﴿رَمَزًا بِالْعَشِيِّ﴾ الرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما قال «الطبري»: الإيماء بالشفيتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين^(٢) ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ وَلَا الْفَيءُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ تَذُوقُ

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ أي اختار للنبوّة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين ﴿وَعَالِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي عشيرته وذوي قريبه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وَعَالِ عِمْرَانَ﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم قال «القرطبي»: وخصّ هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتقوى والصلاح ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها «حنّة بنت فاقود» ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنتي ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ أي لَمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا رب إنها أنثى قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم. قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أو لم تقله ﴿وَلَيْسَ الذَّكَو كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وُهبَها بل هذه أفضل والجملتان معترضان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظام الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِلَيْكِ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي أجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي ربّأها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِجْلًا﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً، قال مجاهد:

(١) «تفسير الفخر الرازي» ٨ / ٣٩، وبنحوه في «الطبري» و«القرطبي».

(٢) «الطبري» ٦ / ٣٨٦.

وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قَالَ يَمْرُؤُا إِنَّ لَكَ هَذَا؟﴾ أي من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي أعطني من عندك ولدًا صالحًا - وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً - ومعنى طيبة صالحة مباركة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي مجيب لدعاء من ناداك ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة^(١) ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي مصدقاً بوعسى مؤمناً برسالته، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة «كن» من غير أب ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿وَحَصُورًا﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنيماً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقص وذم والآية وردت مورد المدح والثناء^(٢) ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير: وهذه بشارة ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاءَهُ مِنْ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) [الفصل: ٧] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وَأَمْرَأتِي عَاقِرٌ﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وسبعين سنة، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكل من السبعين مانع من الولد ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سوي صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ أي اذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة، فقد منع عن الكلام ولم يُمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي

(١) (ش): لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣٧/٢): قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أَي: خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهَا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلُّ خَلْوَتِهِ، وَمَجْلِسُ مُنَاجَاتِهِ، وَصَلَاتِهِ.

(٢) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنيماً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، وقالوا: هذه نقيصه وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أو يمنعه نفسه من الشهوات، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعه إياها بمجاهدة عيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام» انتهى.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٨١.

نزه الله عن صفات النقص بقولك: سبحانه الله في آخر النهار وأوله. وقيل: المراد صلّ الله، قال (الطبري): يعني عظم ربك بعبادته بالعشي والإبكار.

البلاغة: ١ - ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَوْ كَالْأُنْثَى﴾ جملتان معترضان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود.

٢ - ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد.

٣ - ﴿وَأُنَبِّئُهَا نَبَأًا حَسَنًا﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية.

٤ - ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المنادي جبريل وعبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له لأنه رئيسهم^(١).

٥ - ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ بين كلمتي العشي والإبكار طباق وهو من المحسنات البديعية.

الفوائد: الأولى: روي أن «حنة» امرأة عمران كانت عجوزاً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنّت إلى الولد وتمنّته وقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدّته^(٢) ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر^(٣).

الثانية: قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال: والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها «أن النبي ﷺ جاع أياماً فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحماً وخبزاً»^(٤).

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيْمُ أَفَتُنْكِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الزَّكَاةِ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَكْفُلٌ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَكْلَمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ

(١) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

(٢) (ش): السادن: خادِم الكعبة المشرفة، خادِمُ المعبد.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٣٠.

(٤) (ش): القصة رواها أبو يعلى، وضعفها الألباني.

كَهَيْسَةَ الطَّيْرِ فَأَنْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْرِقْ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة ولادة «يحيى بن زكريا» من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتياً، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول، والغرض من ذكر هذه القصة الرد على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى، فذكر ولادته من مريم البتول^(١) ليدل على بشريته، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية.

اللغة: ﴿أُنَبِّأُ﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿نُوحِيهِ﴾ الوحي: إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿أَقْلَمَهُمْ﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿الْمَسِيحُ﴾ لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق وأصله مشيحاً بالعبرانية ومعناه المبارك^(٢) ﴿وَجِيهًا﴾ شريفاً ذا جاهٍ وقدر، والوجاهة الشرف والقدر ﴿الْمَهْدُ﴾ فراش الطفل ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهل: ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الذي يولد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداءٌ عُضَال.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُومُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة، أي: جبريل^(٣) يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصكِ بالكرامات ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿يَمْرُومُ أَفَتُنْقِي لِرَبِّكِ﴾ أي إلزمني عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الأنباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحيناها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ

(١) (ش): البتول من النساء: العذراء المنقطعة من الأزواج، ويُقال: هي المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا. والتبتل: ترك الزواج والزهد فيه والإنقطاع عنه.

(٢) «الكشاف» ٢٧٨/١.

(٣) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿١﴾ أَي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كل يريد لها في كنفه ورعايته ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير. . . روي أن حنة حين ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأخبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترحوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها^(١) قال ابن كثير: وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي بمولود يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب ﴿وَجِئَها فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي سيدياً ومعظماً فيهما ﴿وَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ﴾ عند الله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلّمهم كهلاً قال الزمخشري «ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة»^(٢) ولا شك أن ذلك غاية في الإعجاز ﴿وَمِنَ الصّٰلِحِينَ﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟ ﴿قَالَ كَذٰلِكَ أَلٰهٌ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسبب من الوالدين وبغير سبب ﴿إِذَا قَضٰى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب، يقول له كن فيكون ﴿وَيَعْلَمُ الْكِنٰبَ﴾ أي الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء ﴿وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير: وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بأني قد جئتكم بعلامات تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات، وآية صدقي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصوّر الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله^(٣)، وهذه المعجزة الأولى ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة

(١) (الطبري) ٣٥١/٦.

(٢) (الكشاف) ٢٧٨/١.

(٣) (مختصر ابن كثير) ٢٨٤/١.

الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنو العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر «القرطبي» وغيره، وكرر لفظ «بِإِذْنِ اللَّهِ» دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدقين بآيات الله؛ ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي جئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي هُتِرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ولأحل لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وَجِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرّر تأكيداً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جل وعلا ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

البلاغة: ١ - ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ أَأُتْلَىٰ بِهِ﴾ أطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له ويسمى المجاز المرسل^(١).

٢ - ﴿أَصْطَفَيْنَاكَ وَأَهْرَكَ وَأَصْطَفَيْنَاكَ﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ «مريم» وهذا من باب الإطناب.

٣ - ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾ كنى عن الجماع بالمس كما كنى عنه بالحرث واللباس والمباشرة.

٤ - ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي هُتِرَ عَلَيْكُمْ﴾ بين لفظ ﴿وَلَا حِلَّ﴾ و﴿هُتِرَ﴾ من المحسنات البديعية الطباق، كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع، وهناك نواح بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية الإطالة.

فائدة: جاء التعبير هنا بقوله ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة يحيى ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] والسر في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إبداع واختراع من غير سبب عادي فناسبه ذكر الخلق، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيوخوخة والعقم مانع في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل، والله أعلم.

تنبيه: قال بعض العلماء: الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا «مريم» هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب ولهذا قال في الآية

(١) (ش): تقدم أنه لا يوجد دليل صحيح على تفسير الملائكة بجبريل.

﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ^(١).

قال الله تعالى:

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ عَلَقٍ وَنُفْسًا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَأَنبَأْنَاكُمْ خَلْقَهُ لَنُخْلِقَنَّكُمْ لَعَنَتُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيدها الله بها فإن الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله «اليهود» على قتله فنجاه الله من شرهم ورفعاه إلى السماء.

اللغة: ﴿أَحَسَّ﴾ عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الْخَوَارِثُ﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته، ومنه قيل للحضرىات: حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قَالَ الشَّاعِرُ:

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا وَلَا تَبْكُنَا إِلَّا الْكِلَابُ النَّوَابِغُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سَمَّوْا حَوَارِينَ لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿وَمَكْرُؤًا﴾ المكر: الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم، ومكر الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكى عن الفراء وغيره ﴿نَبْتَهْلُ﴾ نتضرع في الدعاء، وأصل الابتهاال: الاجتهاد في الدعاء باللعن، والبهلة: اللعنة.

سبب النزول: لما قدم وفد نصارى نجران، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى، قالوا للرسول ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير

(١) انظر الجزء الأول من «حاشية الصاوي على الجلالين».

أب؟ فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَرْنَا مِثْلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ﴾ الآية^(١). وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال: كذبتكم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب فقالوا: فمن أبوه فأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ﴾. . إلى قوله ﴿ثُمَّ نَبْتَلُ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً. فقالوا: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية^(٢).

التفسير: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿رَبَّنَا ءَأَمَنَّا بِمَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ثم أخبر تعالى عن اليهود المتأمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ أي أرادوا قتله فنجاه الله من شرهم ورفعهم إلى السماء دون أن يمسَّ بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهودا» وسمي مكرًا من باب المشاكلة^(٣) ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ أي أقواهم مكرًا بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم^(٤)

(١) (ش): ضعيف جداً، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٢) «القرطبي» ٤/ ١٠٣، و«أسباب النزول» للواحدي ص ٥٨.

(ش): ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان».

(٣) المشاكلة: الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، وقد تقدم.

(٤) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل.

والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة. . إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً. قال الله تعالى: =

وفي الحديث «اللهم امكّر لي ولا تمكّر عليّ»^(١) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ بِكُنُوتِكَ إِذْ أَخَذْتَ الظِّلَّ مِنْ رَبِّكَ إِذْ قَامَ ظَهْرُ السَّيِّدِ إِذْ أَقْبَضَ عِزَّهُ إِذْ جَاءَ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ فَأَبْجَسَ الْأَشْجَارُ أَنْ تُبَدِّلَ مِنْهَا أَعْنَاقَ الْبَنَاتِ أَيْ ذُرِّيَّتَهُنَّ الْفُجَّارَ﴾^(٢) وفي الحديث «اللهم امكّر لي ولا تمكّر عليّ» أي رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعته إلى السماء سالمًا دون أذى قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ثم متوفيك بعد ذلك، وقد ذكره «الطبري» فقال: وقال آخرون معنى ذلك: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إليك إلى الدنيا^(٣) ﴿وَمُطَهَّرَكُم مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال الحسن: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفر قومه ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة وقال في «تفسير الجلالين»: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أي صدّقوا نبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم اليهود يعلّونهم بالحجة والسيف ﴿ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي

= ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَالُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا هَلَكُوا إِلَى سَيِّئِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [١١] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالات في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كمالاتاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [١٥] ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾. وقوله: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ اعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَسِرِّ الْهُدَى لِي، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ» (رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني).

(٢) «الطبري» ٤٥٨/٦، وأما قول بعض المفسرين: إنه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع. وقول بعضهم: المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد رده المحققون قال «القرطبي»: «والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار «الطبري» وهو الصحيح عن ابن عباس».

(ش:) قال الإمام «الطبري» في تفسيره «جامع البيان» (٦/ ٤٥٨): «وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا، قول من قال: «معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ»، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه».

بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لمثلتك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي، وبالآخرة بنار جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيههم جزاء أعمالهم الصالحة كاملة غير منقوصة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده؟ ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي خلق آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من جادلَكَ في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي هلموا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونسائه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي». ﴿ثُمَّ نَبْتَلِ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قَالَ: لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا^(١). قال أبو حيان: «وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته»^(٢) ثم قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي لا يوجد إله غير الله^(٣)، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء.

البلاغة: ١ - ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ قال أبو حيان: فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يعلم ويفطن به فإطلاق الحس عليه من نوع الاستعارة.

(١) (ش): (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَبَانِي).

(٢) «البحر المحيط» ٢/ ٤٨٠.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: «لا يوجد إله حق غير الله» لأن هناك آلهة باطلة.

٢ - ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ بين لفظ (مكروا والماكرين) جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة.

٣ - ﴿فَيُوقِئُهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة.

٤ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام.

٥ - ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ هو من باب الإلهاب والتهيج لزيادة الثبوت أفاده «أبو السعود».

لطيفة: قال صاحب «البحر المحيط»: «وَسَأَلَ رَجُلٌ الْجَنِيْدَ، فَقَالَ: كَيْفَ رَضِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ الْمَكْرَ وَقَدْ عَابَ بِهِ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، وَلَكِنْ أَتَشَدَّنِي فَلَانُ الظُّهْرَانِي: وَيَقْبُحُ مَنْ سَوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكَ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(١)».

قال الله تعالى:

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعٰلَوْا اِلٰى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللّٰهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوْا اشْهَدُوْا بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ﴿٦٤﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَحٰجُّوْنَ فِىْ اِبْرٰهِيْمَ وَمَا اُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْاِنْجِيْلُ اِلَّا مِنْ بَعْدِهِۦٓ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٦٥﴾ هَتٰاَنْتُمْ هٰٓؤُلَآءِ حٰجِّجَتُمْ فِىْمَا لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحٰجُّوْنَ فِىْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِۦ عِلْمٌ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ اِبْرٰهِيْمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴿٦٧﴾ اِنَّ اَوَّلَ النَّاسِ بِاِبْرٰهِيْمَ لِلَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَاللّٰهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يَضِلُّوْكُمْ وَمَا يَضِلُّوْنَ اِلَّا اَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٦٩﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيٰتِ اللّٰهِ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ ﴿٧٠﴾ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَلْبِسُوْنَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُوْنَ الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ ءَامِنُوْا بِالَّذِيْ اُنْزِلَ عَلٰى الَّذِيْنَ وَجَّهَ النَّهَارَ وَآكْفُرُوْا ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوْا اِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِيْنََكُمْ قُلْ اِنَّ الْهُدٰى هٰذِىْ اَللّٰهُ اَنْ يُؤْتِىَ اَحَدٌ مِّنْكُمْ مَّا اُوْتِيْتُمْ اَوْ يَحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ اِنَّ الْفَضْلَ بِيْدِ اللّٰهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللّٰهُ وَسِعَ عَلِيْمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهٖۤ مَنْ يَشَآءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ ﴿٧٤﴾

المناسبة: لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح، دعا الفريقين «اليهود والنصارى» إلى التوحيد، والافتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام، ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا كما زعم كل من الفريقين، ثم بين أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأُمَّته.

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٤٧٢.

(ش): المقصود أن مكر الله - غير مكر المخلوقين، وأن فعل الله كله حسنٌ في غاية الإتقان، لا عيب فيه ولا نقصان.

اللغة: ﴿سَوَاءٌ﴾ السَّوَاءُ: الْعَدْلُ وَالنَّصَفُ، قَالَ أَبُو عبيدة: يقال: قد دعاك إلى السَّوَاءِ فاقبل منه قال زهير:

أُرُونَا خُطَّةً^(١) لَا عَيْبَ فِيهَا يُسَوِّي بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ
﴿أَوَّلِي﴾ أَحَقُّ ﴿وَدَّتْ﴾ تَمَنَّتْ ﴿تَلْسُوتُ﴾ اللَّبْسُ: الْخُلْطُ. يقال: أَلْبَسَ الأمرُ عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أوله سميَّ وجهًا لأن أول ما يواجهه من النهار أوله قَالَ الشَّاعِرُ:
مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ^(٢)

سَبَبُ النَّزُولِ: روي عن ابن عباس أن أبحار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقال اليهود: ما كان إلا يهوديًا، وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيًا فأنزل الله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ الآية^(٣).

التفسير: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكًا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضًا كما عبد اليهود والنصارى عزيًّا وعيسى، وأطاعوا الأبحار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا، روي أن الآية لما نزلت قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله، فقال ﷺ «أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟» فقال: نعم فقال النبي ﷺ: «هو ذاك»^(٤). ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحدون مسلمون، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبادة ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرون كثيرة فكيف يكون من أهلها؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بطلان قولكم؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف

(١) (ش): (الْخُطَّةُ): الأمر أو الحالة، والسَّوَاءُ هنا هو العدل.

(٢) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ص ٩٧.

(ش): معنى البيت أنه إذا نظر إلى النساء وما يصنعن لمقتل مالك عَمِ أن ثار مثله لا يُترك.

(٣) «مجمع البيان» ٤٥٦/٢.

(ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن جرير في «جامع البيان»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

(٤) (ش): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ». (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

يقول بذلك عاقل؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم الحق من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك، قال أبو حيان: «وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقول لمن تخبره بشيء لا يعلمه: اسمع فإنني أعلم ما لا تعلم»^(١) ثم أكذبهم الله تعالى في دعوى إبراهيم فقال ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى، وكذلك النصرانية ملة محرّفة عن شرع عيسى ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَّسْلَمًا﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي كان مسلماً ولم يكن مشركاً، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، وردّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهجه في عصره وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حافظهم وناصرهم. ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي تمنّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ما يفتنون لذلك، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لم تخلصون بين الحق والباطل بإلقاء الشبهة والتحريف والتبديل؟ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تكتُمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك، ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكروهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ قال ابن كثير: وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين^(٢) ﴿وَأَكْفُرُوا آخِرَهُ﴾

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٤٨٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٩١.

أي اكفروا بالإسلام آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يَشْكُونَ في دينهم فيرجعون عنه ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تنمة كلام اليهود حكاها الله عنهم والمعنى: لا تصدقوا ولا تظهروا سرّكم وتطمئنوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين، والجملة اعتراضية، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أَن يُؤْفَئِكَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدّقوه وإلا فكذبوه، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم، فإذا أقررتهم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي قل لهم يا محمد: أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحَدُّ ولا يُمْنَعُ.

البلاغة: جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي: المجاز في قوله ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع، والتشبيه في قوله ﴿أَرْبَابًا﴾ حيث شبه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالرب المستحق للعبادة، والطباق في قوله ﴿الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ﴾ والجناس التام في قوله ﴿يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أَوَّلَى﴾ و﴿وَلَى﴾ والتكرار في عدة مواطن، والحذف في عدة مواطن^(١).

فائدة: كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى «هرقل» ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده، ونصّ الكتاب كما هو في صحيح مسلم «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ أَمَّا بَعْدُ فإني أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمَ تَسْلَمَ وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ - يعني الفلاحين والخدم - وَ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

(١) نقلاً عن «البحر المحيط».

(٢) انظر «صحيح البخاري» ومسلم.

قال الله تعالى:

وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المناسبة: لما حكي تعالى قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين: المالية والدينية، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل.

اللغة: ﴿يَقْنَطَارٍ﴾ القنطار المال الكثير وقد تقدم ﴿قَائِمًا﴾ ملازمًا ومدامًا على مطالبته ﴿الْأُمِّيَّتَيْنِ﴾ المراد بهم العرب. وأصل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب. والعرب كانوا كذلك ﴿يَلُودُونَ﴾ من اللَّي وهو اللَّف والقتل تقول: لويت يده إذا قتلها والمراد أنهم يقتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة ﴿لَا خَلْقَ﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿رَبِّكَيْنِ﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب قال «الطبري» معناه: كونوا حكماء علماء^(١).

سبب النزول: عن الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: هل لك بيته؟ قلت: لا، قال لليهودي: احلف قلت: إذا يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير آذاه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحدته ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي إلا إذا كنت ملازمًا له ومُشهدًا عليه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَكِيلٌ﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب -

(١) «الطبري» ٥٤٠ / ٦.

(٢) «القرطبي» ١٢٠ / ٤. (ش): (رواه البخاري ومسلم).

روى أن اليهود قالوا ﴿تَحْنُ أَبْنَوْاُ اللَّهَ﴾ [المائدة: ١٨] والخلق لنا عبيد، فلا سبيل لأحد علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا، وقيل: إنهم قالوا: إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون، روي أنهم لما قالوا ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ﴾ قال نبي الله ﷺ: كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر^(١) ثم قال تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكن من أدى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد، وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام أنسٍ ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يطهرهم من أوضار^(٢) الأوزار، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبه من المعاصي ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿لِيَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله، ثم قال تعالى ردًا على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحد من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله، والنفي في مثل هذه الصيغة ﴿مَا كَانَ﴾ إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوته والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشرعية فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه؟ ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ أَحْسَنَ﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيين قال ابن عباس: حكماء علماء حلماء والمعنى: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾

(١) «القرطبي» ١١٩/٤. (ش): ضعيف، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه «الطبري» في تفسيره (٥٢٢/٦).

لكن ثبت منه قوله ﷺ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْصُوعٍ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): أوضار: أوساخ.

الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿١﴾ أَيُّ بِتعليمكم الناس الكتاب ودراسكم إيَّاه ﴿٢﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكَلْبَةِ وَالنِّسَاءِ أَرْبَابًا ﴿٣﴾ أَيُّ وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَأْمُرَكُمْ بِعبادة غير الله - ملائكة أو أنبياء - لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿٤﴾ أَيُّأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥﴾ أَيُّ يَأْمُرُكُمْ نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟ والاستفهام إنكارى تعجيبى.

البلاغة: ١ - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد.
٢ - ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل الأموال الأمين سبيل.

٣ - ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال.
٤ - ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها^(١).

٥ - ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري: مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسان التفات إليه وأعاره نظر عينيه^(٢).
٦ - بين لفظ ﴿وَأَتَقَى﴾ و﴿الْمُتَّقِينَ﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ و﴿مُسْلِمُونَ﴾ طباق.

فائدة: روي أن رجلاً قال لابن عباس: «إِنَّا: نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قالوا نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ إِنْهُمْ إِذَا أَدَاوا الْجِزْيَةَ لَمْ تَحُلْ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِطَبِيعِ أَنْفُسِهِمْ» ذكره ابن كثير.

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ - وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ

(١) (ش): من التأويل الباطل القول بأن عدم تكليم الله للمجرمين مجازٌ عن شدة غضبه.

(٢) (ش): من التأويل الباطل القول بأن عدم نظر الله إلي المجرمين مجازٌ عن الاستهانة بهم والسخط عليهم.

الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان وبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله دينًا سواه.

اللغة: ﴿مِيثَاقٌ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إِصْرِي﴾ عهدي وأصله في اللغة الثقل قال الزمخشري: وسمي إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد^(١) ﴿الْفَلْسِيفُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ﴿طَوْعًا﴾ انقيادًا عن رغبة ﴿وَكَرْهًا﴾ إجبارًا وهو كاره ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يُمَهَّلُونَ يقال: أنظره يعني أمهله والنظرة: الإمهال ﴿الْخَسِرِينَ﴾ الخسران: انتقاص رأس المال يقال: خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿الضَّالُّونَ﴾ التائهون في مهامه^(٢) الكفر.

سبب النزول: عن ابن عباس قال: ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ هل من توبة فإني قد ندمت؟ فنزلت الآية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم^(٣).

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيين ﴿لَمَّا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال «الطبري»: المعنى لمهما آتيتكم أيها النبيون من كتاب وحكمة ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) «الكشاف» ١/ ٢٩٠.

(٢) (ش): الْمَهْمَةُ، وَالْمَهْمَةُ: الْمَفَازَةُ الْبَعِيدَةُ لَأَمَاءٍ بِهَا وَلَا أَنْيَسَ، وَالْجَمْعُ الْمَهَامَةُ.

(٣) أخرجه النسائي وانظر «القرطبي» ٤/ ١٢٩.

(ش): صحيح، أخرجه أحمد والنسائي

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴿١﴾ أي: جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه، قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي أقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي؟ ﴿قَالُوا أَفَرَرْنَا﴾ أي اعترفنا ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي أعرض ونكت عهده ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَعْذَرُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟ ﴿وَلَهُ ۥ أَسْلَمَ مِن فِى السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لله استسلم وانقاد وخضع أهل السماوات والأرض ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة: المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك ^(١) قال ابن كثير: فالمؤمن مستسلم بقلبه وقاله الله طوعاً، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع ^(٢) ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلأ بعمله ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك: آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنِهِمْ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ أي مصيره إلى النار مخلداً فيها ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ استفهام للتعجب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿وَشَهِدُوا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ ۖ حَقٌّ﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿وَجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حق فلما بعث من

(١) «الطبري» ٥٧٦/٦.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٢٧٩/١.

غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم^(١) ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي ماكثين في النار أبد الأبد، لا يُفْتَر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ نزلت في اليهود كفروا بعبسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أي لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم موجه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

البلاغة: ١ - الالتفات ﴿لَمَّا آتَيْتُكُمْ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله ﴿مِثْقَ النَّيِّتِ﴾.

٢ - بين لفظ ﴿فَاشْهَدُوا﴾ و ﴿الشَّاهِدِينَ﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كَفَرُوا﴾ و ﴿كُفَّارًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٣ - الطباق بين ﴿طَوْعًا﴾ و ﴿وَكَرْهًا﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإيمان.

٤ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

٥ - ﴿وَمَا أَوْقَى مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ﴾ هو من باب عطف العام على الخاص.

٦ - ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم. والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة.

فائدة: الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام:

١ - قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

٢ - وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله: ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾.

٣ - وقسم لم يتب أصلاً ومات على الكفر وإليهم الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

تنبيه: روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَأَهْلِي النَّارِ

عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

قال الله تعالى:

لَنْ نَأْتِيَنَا بِإِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن جِئْتُمْ بِصَدِيقِينَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَعَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَمَنٍ تَبِغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ يَتَاهَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا أَفْرَقًا مِنَ الَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ عَلَيَّكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ يَتَاهَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدى نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك، ذكر عنا - استطراداً - ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردتها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشيت الشمل.

اللغة: ﴿الْبَرَّ﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿جَلًّا﴾ حلالاً وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿إِسْرَءِيلَ﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿يَبْكَةً﴾ اسم لمكة فسمى «بكة» و«مكة» سميت بذلك لأنها تبك أي تدق أعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ البركة: الزيادة وكثرة الخير ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ محل قيام إبراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عَوَجًا﴾ العوج: الميل قال أبو عبيدة: في الدين والكلام والعمل، وبالفتح عَوَجَ في الحائط والجذع ﴿يَعْتَصِمُ﴾ يتمسك ويلتجئ وأصله المنع قال «القرطبي»: وكل متمسك بشيء معتصم وكل مانع شيئاً فهو عاصم ^(١) ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] ﴿شَفَا﴾ الشفا: حرف كل شيء وحده ومثله

الشفير: وشفا الحفرة: حرفها قال تعالى ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَاكِ﴾ [التوبة: ١٠٩].

سَبَبُ النُّزُول: يروى أن «شاس بن قيس» اليهودي مرَّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، ثم أمر شابًا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم «بُعث» ويُشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار - وكان يومًا اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس - ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم؟» فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيدًا من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْعَانَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (١) الآية.

التفسير: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدرخوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وما تبدلوا من شيء من سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالًا لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبة لهم على معاصيهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أي كانت حلالًا لهم قبل نزول التوراة ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: اتئوني بالتوراة واقرأوها عليّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيتكم وظلمكم قال الزمخشري: وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصد عن سبيل الله فلما حاجّهم بكتابهم وبكتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ (٢) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة ظهور البينة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلًا عن الأديان الزائفة كلها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ برأه مما نسبته اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية،

(١) «أسباب النزول» ص ٦٦ و«الكشاف» ١/ ٣٠١.

(ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» و«الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٩٥.

وفيه تعريض بإشراكهم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وضع مباركاً كثيراً الخير والنفع لمن حَجَّهَ واعْتَمَرَهَ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم، ثم عدد تعالى من مزايه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، وفيه زمزم والحطيم^(١)، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقية أن يكون قبله للمسلمين؟ ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذه آية أخرى وهي أن من دخل الحرم بدعوة الخليل إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فرض لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغن عن عبادته وعن الخلق أجمعين، وعبر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس: من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه^(٢)، ثم أخذ يُبَيِّنُ أهل الكتاب على كفرهم فقال ﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لم تجحدوا بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به؟ ﴿تَبْعُونَهَا أَوْجًا﴾ أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجة، وذلك بتغيير صفة الرسول، والتليس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعد، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين: الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبهة والشكوك في قلوب الضعفة من الناس ﴿يَتَاهُلُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نُطِيعُ أَوْفَرَبَّاقًا مِنَ الَّذِينَ أُولُوا الْكِتَابِ﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب ﴿يُرِدُّوكُمْ بِعَدَائِمِنِكُمْ كَفْرِينَ﴾ أي يصيرونكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنهم كما في سبب النزول. واللفظ في الآية عام ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تنزل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيّ بين أظهركم؟ ﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي من

(١) (ش): الْحَطِيمُ: الْحَجَرُ: الْقِسْمُ الْخَارِجُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ مَحْطُودٌ مُدَوَّرٌ عَلَى صُورَةِ نَصْفِ دَائِرَةٍ وَيُسَمَّى (حَجَرِ إِسْمَاعِيلَ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٠٣.

يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود: «هُوَ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَيَشْكُرَ فَلَا يُكْفَرُ» والمراد بالآية ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي كما أن يُتَّقَى وذلك باجتنب جميع معاصيه ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعُضُّوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعًا ولا تفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداء فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين^(١).

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة نوجزها فيما يلي:

- ١ - ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ الأمر للتبكيك والتوبيخ للدلالة على كمال القبح.
- ٢ - ﴿لِلَّذِي بِيَكَّة﴾ أي للبيت الذي بيكة وفي ترك الموصوف من التفضيم ما لا يخفى.
- ٣ - ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وضع هذا اللفظ موضع «ومن لم يحج» تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه قال «أبو السعود»: «ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبار ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ حيث أثمرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص، والإيهام ثم التبيين، والإجمال ثم التفصيل»^(٢).

- ٤ - ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ شبه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاة في كل.
- ٥ - ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة وهوة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم.

تنبيه: وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب:

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٠٤.

(٢) «أبو السعود» ١/ ٢٥٥.

الشبهة الأولى: أنهم قالوا: للنبي ﷺ: إنك تدعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيح لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾ الآية.

الشبهة الثانية: قالوا إن «بيت المقدس» قبلة جميع الأنبياء؛ وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف ترك يا محمد التوجه إليه ثم تزعم أنك مصدق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ الآية.

قال الله تعالى:

وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَنْ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَءُوءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

المناسبة: لما حذر تعالى من مكائد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف، ثم ذكر ما حلَّ باليهود من الذل والصغار بسبب البغي والعدوان.

اللغة: ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات الواضحات ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿الْمُنْكَرُ﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿الْأَدْبَارَ﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال: ولاه دبره أي هرب من وجهه ﴿تُقِفُوا﴾ وجدوا وصدفوا ﴿بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ﴾ الحبل معروف والمراد به هنا: العهد وسمي حبلًا لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿وَبَءُوءَ﴾ رجعوا ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر.

التفسير: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ أَيُّ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴿٣﴾ أَيُّ لَا تَكُونُوا كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ بِسَبَبِ اتِّبَاعِ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ ﴿٤﴾ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ أَيُّ لَهُمْ بِسَبَبِ الْاِخْتِلَافِ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿٧﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْيَضُ وَجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَتَسْوَدُ وَجُوهُ الْكَافِرِينَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٩﴾ هَذَا تَفْصِيلٌ لِأَحْوَالِ الْفَرِيقَيْنِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ. وَالْمَعْنَى أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وَجُوهُهُمْ فَيَقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ: أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ أَيُّ بَعْدَ مَا وَضَحْتُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَالِدَلَالِ ﴿١٠﴾ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١﴾ أَيُّ ذُوقُوا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ ﴿١٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ ﴿١٣﴾ أَيُّ وَأَمَّا السَّعْدَاءُ الْأَبْرَارُ الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَاتِ ﴿١٤﴾ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾ أَيُّ فَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ﴿١٦﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴿١٧﴾ أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ حَالِ كَوْنِهَا مُتَلَبَسَةً بِالْحَقِّ ﴿١٨﴾ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ أَيُّ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَ أَحَدًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٢١﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدُ ﴿٢٢﴾ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٣﴾ أَيُّ هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٢٤﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ أَيُّ أَنْتُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَيْرُ الْأُمَمِ لِأَنْتُمْ أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ وَلِهَذَا قَالَ ﴿٢٦﴾ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿٢٧﴾ أَيُّ أُخْرِجَتْ لِأَجْلِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿٢٨﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿٢٩﴾ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ. ﴿٣٠﴾ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿٣١﴾ وَهَذَا بَيَانٌ لَوْجِهِ الْخَيْرِيَّةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: السَّبَبُ فِي كَوْنِكُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ هَذِهِ الْخِصَالُ الْحَمِيدَةُ رَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا » ^(١) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا ﴿٣٣﴾ أَيُّ لَوْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَصَدَّقُوا بِمَا جَاءَ بِهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٣٤﴾ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَيُّ مِنْهُمْ فَتَّةٌ قَلِيلَةٌ مُؤْمِنَةٌ كَالنَّجَاشِيِّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ^(٣)، وَالكَثْرَةُ الْكَثِيرَةُ فَاسِقَةٌ خَارِجَةٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، ﴿٣٦﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴿٣٧﴾ أَيُّ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا ضَرَرًا يَسِيرًا بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ سَبٍّ وَطَعْنٍ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْدَارَ ﴿٣٩﴾ أَيُّ يَنْهَضُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنَالُوا مِنْكُمْ شَيْئًا ﴿٤٠﴾ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٤١﴾ أَيُّ

(١) (ش): فالجنة أثَرٌ من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار

أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣١١.

(٣) (ش): فقد دخلوا الإسلام وآمنوا بالنبي ﷺ.

ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لا ينصرون والجملة استثنائية^(١) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس: بعهد من الله وعهد من الناس ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب تمردهم وعصيانهم وأوامر الله تعالى.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - ﴿وَيَا مُرُوتَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَهْوَنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٢ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم.

٣ - ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بين كلمتي ﴿تَبْيَضُّ﴾ و﴿تَسْوَدُّ﴾ طباق.

٤ - ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ مجاز مرسل أطلق الحال وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة.

٥ - ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة.

٦ - ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

فائدة: قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري: «وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم مخذولون مُتَّفٍ عنهم النصر، ولو جزم لكان نفي النصر مقيداً بقتالهم بينما نفي النصر وعدٌ مطلق»^(٢).

تنبيه: الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين، وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ رسالة قيمة أسماها «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة^(٣).

(١) (ش): الجملة الاستثنائية: هي التي يُبْتَدَأُ بها معنى جديدٌ بعد كلام سابق، كالجملة الثانية والثالثة في قولنا: «أَحْزَنْتَكَ وشاية فلان، لا تلتفت إليها، إني لم أصدقها».

(٢) «الكشاف» ٣٠٨/١ باختصار.

(٣) (ش): أنواع الاختلاف الواقع بين المسلمين:

قال الله تعالى:

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
﴿١١٦﴾ مِثْلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِبْحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ
دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أولَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ
قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتَاوُنَ غَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنَّ
مَسَسَكُمُ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

المناسبة: لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة

= ١ - اختلاف التنوع: وهو ما لا يكون فيه أحد الأقوال منافياً للأقوال الأخرى بل كل الأقوال صحيحة، وهذا
مثل القراءات وأنواع الشهادات، فمن يقرأ في التشهد بتشهد ابن مسعود لا يرى مانعاً من تشهد ابن عباس
- رضي الله عنهما - أو تشهد عمر - رضي الله عنه - أو غيره من الصيغ، بل اتفق العلماء على جواز كل منها،
وإنما اختلافهم في اختيار كل منهم لما يراه الأفضل لاعتبارات يراها.
٢ - اختلاف التضاد: وهو أن يكون كل قول من أقوال المختلفين يضاد الآخر ويحكم بخطئه أو بطلانه، وهو
يكون في الشيء الواحد يقول البعض بحرمة والبعض بجله. وينقسم اختلاف التضاد إلى: أولاً: اختلاف
سائغ غير مذموم: وهو ما لا يخالف نصاً من كتاب أو سنة صحيحة، أو إجماعاً أو قياساً جلياً. أمثلة الاختلاف
السائغ: - وجوب المضمضة والاستنشاق أو استحبابهما. - وضع اليمنى على اليسرى على الصدر بعد
الركوع أو إرسالهما. - النزول على الركبتين أو على اليدين في السجود. ثانياً: اختلاف غير سائغ مذموم: وهو
ما خالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماعاً أو قياساً جلياً لا يختلف فيه. أمثلة للاختلاف غير السائغ: - القول
بصححة النكاح دون ولي وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا
بَاطِلٌ» ثلاثاً. - القول بجواز المعازف وسماعها وهو مصادم لنص الحديث الصحيح: «لَيْكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ
يَسْتَجْلُونَ الْحَرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ» رواه البخاري. - تهنة الكفار من النصارى وغيرهم بأعيادهم
الكفرية أو بمناصبهم الطاغوتية بزعم سماحة الإسلام أو مصلحة الدعوة؛ فإن هذا عند كل أهل العلم من
موالاتهم وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع. وليس معنى أن الخلاف في المسألة خلاف سائغ أنه يجوز
لكل واحد أن يتنقي بالتشهي آياً من القولين دون اجتهاد، فهذا سبيل إلى الزندقة والانحلال، وقد أجمع العلماء
فيما نقل الإمام أبو عمر بن عبد البر أنه: «لا يجوز تتبع رخص العلماء فضلاً عن الزلات والسقطات». [جامع
بيان العلم وفضله (ص ٣٦٠)].

واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر^(١)، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونبه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين.

اللغة: ﴿ءَانَاءَ﴾ أوقات وساعات مفرداً إنى على وزن معى ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ يُجحدوه من الكفر بمعنى الجحود، سمي منع الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صِرُّهُ﴾ الصرُّ: البرد الشديد قاله ابن عباس. وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حَرَّثَ﴾ زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزرع والبذر ﴿بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل: خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾ أي لا يقصرون قال الزمخشري: يقال ألا في الأمر يألو إذا قصر فيه ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عَنِتُّمْ﴾ العنت: شدة الضرر والمشقة ﴿الْأَنَامِلُ﴾ أطراف الأصابع. **سبب النزول:** لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود، ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم: لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء، وهنا تم الكلام. ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي يتعبدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يؤمنون بالله على الوجه الصحيح^(٣) ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي مخلصون في عذاب جهنم ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا

(١) (ش): فمنهم من آمن بالنبي ﷺ ودخل الإسلام.

(٢) «أسباب النزول» للواحدى ﷺ ٦٨. (ش): ضعيف، أخرجه ابن إسحاق؛ في «السيرة» و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) (ش): ومن أركان الإيمان الإيمان بالنبي ص، قال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِّنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ. (رواه مسلم).

بقصد الثناء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به؛ وكذلك الكفار يحرق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب، ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ﴾ أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونكم من البغضاء أكثر مما يظهره ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم عقلاء، وهذا على سبيل الهز والتحريك للنفوس كقولك: إن كنت مؤمنًا فلا تؤذ الناس وقال ابن جرير: المعنى: إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم بين سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿هَتَأْتُمْ أَزْوَاجًا لَا يَحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ﴾ أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم، تريدون لهم النفع وتبدلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضرر ويضمرون لكم العداوة ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي وهذا من خبثهم إذ يُظهرون أمامكم الإيمان نفاقًا ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ هو دعاء عليهم، أي: قل يا محمد: أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي إن الله علام بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين، ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرةٍ وغنيمةٍ ونحو ذلك ساءتكم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجذبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم، فبين تعالى بذلك فرط

(١) هذا قول «الطبري» وكثير من المفسرين وقيل المراد منه: التفرع والإغاظة. والمعنى: أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في «القرطبي» ١/ ١٨٣.

عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم، فشرط تعالى نفْي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدبرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة.

البلاغة: ١ - ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يَسْجُدُونَ﴾ .
٢ - ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل.

٣ - ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي، شبه ما كانوا ينفقونه في المفاز وكسب الشاء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته خطأً.

٤ - ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في «تلخيص البيان»^(١).

٥ - ﴿عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ﴾ قال أبو حيان: يوصف المغتاط والنادم بعص الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذابة المؤمنين^(٢).

٦ - في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ سُوْهُمُ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظَلَمَهُمْ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ وفي ﴿أَلْغَيْطُ﴾ و﴿يَغِيظُكُمْ﴾ وفي ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾ .

لطيفة: عبر بالمس في قوله ﴿إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مساً خفيفاً، وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون، وهذا من أسرار بلاغة التنزيل، نقلاً عن «حاشية الكشف».

قال الله تعالى:

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا

(١) «تلخيص البيان» ص ٢١.

(٢) «البحر المحيط» ٤١ / ٣.

اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٣٧﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٩﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غَلَبًا يَكُونُوا حَآبِيَيْنَ ﴿١٤٠﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٢﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤٣﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٥﴾

المناسبة: يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال، والآيات تتحدث عن غزوة «أحد» بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليدكرهم بنعمته تعالى عليهم لما نصرهم ببدر وهم أدلة قليلون في العدد والعدد، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في همّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تشييط المنافقين لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة، روى الشيخان عن جابر قال: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلِمْةَ وَمَا نَحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾».

اللغة: ﴿عُدُوْتُ﴾ خرجت غُدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿نَفْشَلَا﴾ الفشل: الجبن والضعف ﴿تُبُوُّيُّ﴾ تنزل يقال: بوأته منزلاً وبوأت له منزلاً أي أنزلته فيه وأصل التبوؤ اتخاذ المنزل ﴿أَذَلَّةٌ﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿فُورِهِمْ﴾ الفور: السرعة وأصله شدة الغليان من فارت القدرة إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول: من فوره أي من ساعته ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بفتح الواو بمعنى معلمين على القتال وبكسرهما بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء^(١) ﴿طَرَفًا﴾ طائفة وقطعة ﴿يَكْتَسِبُ﴾ الكبت: الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿حَآبِيَيْنَ﴾ الخيبة: عدم الظفر بالمطلوب.

سبب النزول: ثبت «في صحيح مسلم» أن النبي ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشَجَّ فِي رَأْسِهِ فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ^(٢) عَنْهُ وَيَقُولُ «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكُسِرُوا رِبَاعِيَّتُهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ

(١) (ش): أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: «كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، قد أرسلوها إلى ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء». (وضعهف الألباني).

(٢) (ش): يَسْلُتُ الدَّمَ: يقطع نزوله ويزيله. رِبَاعِيَّةٌ: سنٌّ بين الثنيتين والنَّاب، وهي أربع: اثنتان في الفك الأعلى واثنتان في الفك الأسفل. والثنية: إحدى الأسنان الأربع في مُقَدِّمِ الفم، اثنتان من فوق واثنتان من تحت.

إِلَى اللَّهِ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

التفسير: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلِكَ ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي تُنْزِلُ الْمُؤْمِنِينَ أَمَاكِنَهُمْ لِقِتَالِ عَدُوهِمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما «بنو سلمة» و«بنو حارثة» وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل «عبد الله بن أبي» بثلاث الجيش وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فَهَمَّ الْحَيَّانُ مِنَ الْأَنْصَارِ بِالرَّجُوعِ فَعَصَمَهُمُ اللَّهُ فَمَضَوْا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهِنَّ﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم، ثم ذَكَرَهُمُ تَعَالَى بِالنَّصْرِ يَوْمَ بَدَرَ لِقَوَى قُلُوبَهُمْ وَيَتَسَلَّوْا عَمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ يَوْمَ أَحَدٍ فَقَالَ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعدد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أي اشكروه على ما مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النَّصْرِ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ﴾ أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ بلى تصديق للوعد، أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتفقتم الله وأطعتم أمره ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ أي يأتاكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي يَزِدُّكُمْ اللَّهُ مَدَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُعَلِّمِينَ عَلَى السَّلاحِ وَمُدَرِّبِينَ عَلَى الْقِتَالِ (١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتًا ﴿وَلِنُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العدد والعدد، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغْلَبُ فِي أَمْرِهِ، الْحَكِيمُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا تَقْتَضِيهِ حُكْمَتُهُ الْبَاهِرَةُ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ذلك التدبير الإلهي لِيُهْلِكَ طَائِفَةً مِنْهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَيَهْدِمَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الشَّرْكِ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسرُوا سبعين وأعزَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَذَلَّ الشَّرْكَ وَالْمُشْرِكِينَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هذه الآية وردت اعتراضًا وهي

(١) وقيل: معنى مسوِّمين: معلَّمون بعلامة، قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم، انظر «الطبري» و«الكشاف». (ش): ضعيف.

في قصة أحد، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف قال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم، أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي له جل وعلا ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ هذا نهى من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير: كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن: إمّا أن تقضي وإمّا أن تُربي فإن قضاه وإلاّ زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله.

البلاغة: ١ - ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضي باستحضار صورتها في الذهن.

٢ - ﴿أَنْ يُعَذِّبَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم. أفاده «أبو السعود».

٣ - ﴿يَغْفِرُ - وَيُعَذِّبُ﴾ بينهما طباق.

٤ - ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ جناس الاشتقاق.

٥ - ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يتول إليه فهو مجاز مرسل.

تنبيه: ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيّد ولا للشرط، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشجيع عليهم بأن في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة قال أبو حيان: «نحو عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالنزر اليسير مال المدين، وأشار بقوله: ﴿مُضَاعَفَةً﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عامّاً بعد عام، والربا محرم بجميع أنواعه، فهذه الحال ليست قيّداً في النهي»^(٢).

(١) «مختصر ابن كثير» ٣١٨/١.

(٢) «البحر المحيط» ٤٥/٣.

قال الله تعالى:

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٥﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٦﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِن يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ فَتَحَ لَكُم مِّن قِبَلِهِ مَسَاجِدَ ۚ وَلَهُ الْأَيْمَانُ نَذْرٌ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي وَلِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٢﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَمَسُّهُ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُؤَجِّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٦﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ۖ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٧﴾

المناسبة: لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة بدر، عقبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول، ثم بين أن الابتلاء سنة الحياة، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين، ثم توالى الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أحد.

اللغة: ﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا ﴿السَّرَّاءِ﴾ الرخاء ﴿والضَّرَّاءِ﴾ الشدة والضييق ﴿وَالْكُظُمِينَ﴾ كظم الغيظ: رده في الجوف يقال: كظم غيظه، أي: لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القرية إذا ملأها وشد رأسها ﴿فَحِشَّةٌ﴾ الفاحشة: العمل الذي تنهى في القبح ﴿خَلَّتْ﴾ مضت ﴿سُنَنٌ﴾ السُّنَن: جمع سُنَّة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سُنَّة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿فَرَحٌ﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء: هو بالفتح الجرح وبالضم ألمه^(١)، وأصل الكلمة الخلوص، ومنه ماء قراح ﴿نَذَاوِلُهَا﴾ نصرَها

والمداولة: نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال: تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ التمهيد: التخليص يقال: محصته إذا خلصته من كل عيب وأصله في اللغة: التنقية والإزالة ﴿وَيَمَحِّقُ﴾ المحق: نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أَعْقَبَكُمْ﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال: انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مُؤَجَّلًا﴾ له وقت محدّد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَكَايْنٍ﴾ كم وهي للتكثير وأصلها (أي) دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿رَبِّيُّونَ﴾ جمع ربّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل: نسبة إلى الرّبة وهي الجماعة ﴿أَسْتَكَانُوا﴾ خضعوا وذلّوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد.

التفسير: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتنال أوامره ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها السماء والأرض كما قال في سورة «الحديد» ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١] والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، ﴿وَالْكُفَّيْنِ الْغَيِّظِ﴾ أي يمسكون غليظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم وظلمهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ أي ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر ^(١) ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطيب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة وليبان أن الذنوب - وإن جلّت ^(٢) - فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وَجَنَّتْ تَجَرَّىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ أي نعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله، ثم ذكر تعالى تمة تفصيل غزوة أحد بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح فقال ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

(١) قال ابن عباس: الفاحشة الزنى وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة.

(٢) (ش): جَلَّ الأمر: عَظُمَ.

عَقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴿١﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين، وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن ^(١) فيه بيان شاف للناس عامة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس، ثم أخذ يسليهم عما أصابهم من الهزيمة في وقعة أحد فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتل أو هزيمة ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أحد فقد أبليتكم فيهم يوم بدر ^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تنهوا ولا تحزنوا ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أي إن أصابكم قتل أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي الأيام دُول، يومٌ لك ويومٌ عليك، ويوم تُسَاء ويوم تُسَرُّ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخدلوا عن نبيه يوم أحد ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ينفهم ويظهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص؟ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟ ^(٣)

قال «الطبري» المعنى: أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه ^(٤)!! ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحطوا بالشهادة ﴿قَبْلَ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم ^(٥) أن تُقتلوا، ونزل لما

(١) اختار «الطبري» وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى: هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين.

(٢) (ش): أبلى في الحَرْب ونحوها: اجتهد فيها، وأظهر فيها بأساً.

(٣) (ش): لمّا: حرف نفْي يجزم المضارع، ويقبله إلى ماضٍ ممتدٍّ حتَّى وقت الحديث مع توقُّع حدوثه في المستقبل القريب. «لَمَّا يَذَاكِرْ دَرَسَهُ»: لم يفعلهُ إلى وقت الحديث. ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل الإيمان حتَّى الآن.

(٤) «تفسير الطبري».

(٥) (ش): شارَفَ المُسَافِرُ البلدَ/ شارَفَ المُسَافِرُ على البلد: قاربه، دنا منه.

أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون: إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ليس محمد إلا رسول الله مضت قبله رسل، والرسول منهم من مات ومنهم من قتل ﴿أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم؟ ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفس أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته ومشئته ﴿كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ أي كتب لكل نفس أجلها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجبن لا يزيد في الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناها منها وليس له في الآخرة من نصيب، وهو تعرض بالذين رغبوا في الغنائم، فبين تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة^(١) لأنها مبدولة للبر والفاجر ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناها الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم ﴿وَكَايُنْ مَنِ نَحْيَ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون^(٢) وعُباد صالحون قاتلوا فقتل منهم من قتل ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ما جنوا ولا ضعفت همهم لما أصابهم من القتل والجراح ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ أي ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك ﴿وَوَثِّبْتَ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في مواطن الحرب ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي انصرنا على الكفار ﴿فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته، وخصَّ ثواب الآخرة بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتمد به عند الله.

(١) (ش): غبط فلاناً: تمنى مثل ما له من النعمة من غير أن يحسده أو يريد زوالها عنه.

(٢) ذهب «الطبري» إلى معنى «رِيثُونَ كَثِيرٌ» أي جموع كثيرة. وهذا قول قتادة، وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - ﴿عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي كعرض السماوات والأرض حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه. يسمى هذا «التشبيه البليغ».
- ٢ - ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة.
- ٣ - ﴿السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية.
- ٤ - ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر إلا الله.
- ٥ - ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببُعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل.

- ٦ - ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلَيْنِ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك.
 - ٧ - ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿تَدَاوُلُهَا﴾ فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة، والسر في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله.
 - ٨ - ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ قصر موصوف على صفة.
 - ٩ - ﴿أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ قال في «تلخيص البيان»: هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه، فشبه سبحانه الرجوع في الارتياب بالرجوع على الأعقاب^(١).
- الفوائد الأولى:** في هذه الآيات الكريمة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب، وكل منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر.

الثانية: قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام.

الثالثة: تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها؟ قال ابن عباس: كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض^(٢).

الرابعة: كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار؟ فقال عليه السلام: «سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار»^(٣).

الخامسة: أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾

(١) «تلخيص البيان» ص ٢١.

(٢) «البحر المحيط» ٥٨/٣.

(٣) أخرجه أحمد، (ش): وضعفه الألباني.

وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴿[الحديد: ٢١]﴾ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴿[البقرة: ١٤٨]﴾ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿[الجمعة: ٩]﴾ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ ﴿[المطففين: ٢٦]﴾ وَأَمَّا لَعْمَلِ الدُّنْيَا فَاْمُرْ بِالْهُوْنِ ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ ﴿[الملك: ١٥]﴾ وَءَاخِرُونَ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿[المزمل: ٢٠]﴾ فتدبر السر الدقيق.

قال الله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ تَحِثُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۖ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ فَأَثْبِتْكُمْ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ سَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمَّتْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنَّ اللَّهَ يُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أحد وما فيها من العظات والعبر، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة، وتأميرهم على الدعوة الإسلامية بتبسيط عزائم المؤمنين.

اللغة: ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهاناً وأصله القوة ومنه قيل للوالي: سلطان ﴿مَثْوَى﴾ المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم قال الزجاج: الحس الاستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس قال الشاعر:

حَسَنَانَهُمْ بِالسَّيْفِ حَسًّا فَأَصْبَحَتْ بِقِيَّتُهُمْ قَدْ شَرُّدُوا وَتَبَدَّدُوا ﴿تَصْعَدُونَ﴾ الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض، والصعود يكون في ارتفاع ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من لِي العنق للإلتفات ﴿أُخْرِتُكُمْ﴾ أخركم ﴿فَأَتْبَكُكُمْ﴾ جازاكم ﴿أَمَنَّةٌ﴾ أمانًا واطمئنانًا ﴿يَعْشَى﴾ يستر ويغطي ﴿وَلِيْمَحَّصٌ﴾ التمحيص: التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿أَسَزَلَّكُمْ﴾ أوقعهم في الزلة وهي الخطيئة ﴿عُزِّي﴾ جمع غاز وهو الخارج في سبيل الله.

سَبَبُ النزول: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾ إلى قوله مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد^(١)

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي ترجعوا إلى الخسران، ولا خسران أعظم من أن تبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس: هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد لو كان نبيًا ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصارًا لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره، ثم بشر تعالى المؤمنين بالقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفرع ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ أي مستقرهم النار ﴿وَيَبْتَئِسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث «نصرت بالرعب مسيرة شهر» ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وفي الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ﴾ أي حتى إذا جبتكم وضعفتكم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَانَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم، روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفخوا عن المسلمين وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٧. (ش): ضعيف.

تخطفتنا الطير، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة فانهمز المشركون، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة ونزلوا لجمع الأسلاب، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين فذلك قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ أي من بعد النصر ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم «عبد الله بن جبير» ثم استشهدوا ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي صفح عنكم مع العصيان، وفيه إعلان بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ذو منٍّ ونعمة على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لآخر ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَبِكُمْ﴾ أي ومحمد ﷺ يناديكم من ورائكم يقول «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ مَن يَكُرْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(١) وأنتم تمنعون في الفرار ﴿فَأَثْبَكُمْ غَمًّا بُعِيدًا﴾ أي جازاكم على صنعكم غمًّا بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم أمره^(٢) ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي من الهزيمة، والغرض بيان الحكمة من الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم وما أصابهم وذلك من رحمته تعالى بهم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم المخلص من غيره ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَّعَاسًا﴾ وهذا امتنان منه تعالى عليهم، أي: ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة ولتأمنوا على أنفسكم من عدوكم فالحائف لا ينام، روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: غَشِينَا النُّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلَ سِنْفِي يَسْقُطُ مِن يَدِي وَأَخَذُهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذُهُ. ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمانة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإخلاص، وبقي أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿يَغْشَى طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون

(١) (ش): ذكره هذا اللفظ في تفسيره: الرازي، والنسفي، والبيضاوي، والألوسي، والزمخشري، ورواه ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان»، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «والرسول يدعوكم في أخراكم»، «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا!». (يَكُرْ): يرجع.

(٢) ذهب «الطبري» إلى أن الباء بمعنى على والمعنى: فجازاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غمًّا على غم، كقوله: ﴿وَلَا أُصَلِّتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جدوع النخل، وقد رجح هذا القول ابن القيم واعتمده ابن كثير ١/ ٣٢٠.

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمة فلا رغبة لهم إلا نجاتها وهم المنافقون، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمانة فناموا، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿يُطْئُونُكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظن أهل الجاهلية، قال ابن كثير: وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة^(١)، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة^(٢) ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: الأمر كله بيد الله يصرفه كيف شاء ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي يُبْطِنُونَ في أنفسهم ما لا يُظْهِرُونَ ذلك ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير: أرسل علينا النوم ذلك اليوم وإنني لأسمع قول «معتب بن قشير» والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا^(٣) ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْنَا مَضَاجِعُهُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قَدَّرَ الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم، فَقَدَّرَ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولينقي ما في قلوبكم ويظهره فعَلَّ بكم ذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بالسرائر مطلع على الضمائر وما فيها خير أو شر، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أحد فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنْكُمْ﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة حلِيم لا يعجل العقوبة لمن عصاه، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿وَقَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقالوا لِأَخْوَانِهِمْ من أهل

(١) (ش): أي المعركة الفاصلة.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٣٠.

(٣) تفسير «القرطبي» ٤/ ٢٤٢. (ش): حسن، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والبيهقي في «دلائل النبوة».

النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ردُّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مُطَّلِعٌ على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ﴿وَلَكِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم، فأثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته، والله در القائل حيث يقول:

فَإِنْ تَكُنِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِئَتْ فَقَتَلَ أَمْرِي بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ أَفْضَلُ

البلاغة: ١ - ﴿يُرْذَوُكُمْ عَلَىٰ عَقَبِكُمْ﴾ أي يرجعوك من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم.

- ٢ - بين لفظ ﴿ءَامَنُوا﴾ و﴿كَفَرُوا﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿يُخْفُونَ﴾ و﴿يُبْدُونَ﴾ وبين ﴿فَاتَكُمْ﴾ و﴿أَصَابَكُمْ﴾ وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾ لم يقل وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مَثْوًى الظالمين النار أفاده «أبو السعود»^(١).
- ٤ - ﴿ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ التنكير للتفخيم. وقوله ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ دون «عليهم»^(٢) فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلّة الحكم.
- ٥ - ﴿يَطْنُونُ بِاللَّهِ... ظَنَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فَتَوَكَّلْ... الْمُتَوَكِّلِينَ﴾
- [آل عمران: ١٥٩].

- ٦ - ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه استعارة تشبيهًا للمسافر في البر بالساحب الضارب في البحر. لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقًا لها واستعانة على قطعها كذا في «تلخيص البيان»^(٣).
- فائدة:** من الذين ثبتوا في المعركة بأحد الأسد المقدام «أنس بن النضر» عم أنس بن مالك، فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمدًا ﷺ قد قتل قال: اللهم إني أعترز إليك مما

(١) «أبو السعود» ٢٨٢/١.

(٢) (ش): أي قال: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل: «عليهم».

(٣) «تلخيص البيان» ص ٢٢.

صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه فلقبه «سعد بن معاذ» فقال: أين يا سعد؟ والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل ومثل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورئى وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم^(١).

فَائِدَةٌ: روى ابن كثير عن ابن مسعود قال: إن النساء كنَّ يومَ أحد خلف المسلمين يُجهِزن على جَرَحِي المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرَّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(٢) فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرَدَ النبي ﷺ في تسعة وهو عاشرهم، فلما أرهقوه قال: رحم الله رجلاً ردهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم^(٣)، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها^(٤)، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وصلى عليه يومئذ سبعين صلاة^(٥).

قال الله تعالى:

فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَن أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهَّ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمْ

(١) انظر قصته في «صحيح البخاري». (ش): القصة رواها البخاري ومسلم.

(٢) (ش): رواه الإمام أحمد، وضعفه الحافظ ابن كثير والألباني.

(٣) (ش): عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرَدَ يومَ أحدٍ في سبعةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِّنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا رَهَقُوهُ قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ رَهَقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ». فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ (رواه مسلم).

(٤) (ش): (فلاكتها): اللوك: أهون المصغ، أو مضغ صلب. لم يثبت أن هند بنت عتبة أكلت من كبدة حمزة، انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص: ١٤٧). وعلى فرض ثبوته فإن هنداً - رضي الله عنها - أسلمت، والإسلام يهدم ما كان ما قبله.

(٥) (ش): ما رواه الإمام أحمد من أن النبي ﷺ صلى على شهداء أحد، وأنه صلى على حمزة سبعين صلاة بتعدادهم، قد وضعفه الحافظ ابن كثير والألباني. بل روى البخاري أن النبي ﷺ أمر بدفنيهم يدمايتهم، ولم يصل عليهم، ولم يُعَسَّلُوا. وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم أنه صلى عليهم بعد ذلك بضع سنين كالمودع للأحياء.

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ هُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أحد، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غم واضطراب، وأرشدتهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة إشادة بالقيادة الحكيمة، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ فقد وسعهم عليه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدّة وإنما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحدت تحت قيادته، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة، وعن المنّة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة.

اللغة: ﴿فَطَا﴾ الفطّ: الغليظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيئ الخلق
قال الشاعر^(١):

أَخْشَى فَطَاظَةً عَمَّ أَوْ جَفَاءً أَخْ أَخْشَى عَلَيْهَا مِنْ أَدَى الْكَلِمِ
 ﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر:
 يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نُبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَعْلَطُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ^(٢)
 ﴿لَا نَفْضُوا﴾ تفرقوا وأصل الفض الكسر ومنه قولهم: لا يفضض الله فاك (يغل) الغلول:
 الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال: غل فلان في الغنيمة، أي: أخذ شيئاً منها في خفية
 (باء) رجع (سخط) السخط: الغضب الشديد (مأواه) منزله ومثواه (يزكيهم) يطهرهم (من)
 المنّة: الإنعام والإحسان (فادرءوا) الدرء: الدفع ومنه ﴿وَيَذَرُوهَا لِلْعَذَابِ﴾ .

سبب النزول: فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعل النبي ﷺ أخذها فأنزله الله ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ^(٣)﴾ الآية.

التفسير: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أي فبسبب رحمة من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت حينئذ هيناً لئن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَطَا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لتفرقوا عنك ونفروا منك، ولما كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن

(١) (ش): قَالَه الشَّاعِرُ فِي ابْنَةِ لَهُ.

(٢) «البحر المحيط» ٨١/٣.

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ص ٧٢. (ش): حَسَن، أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ.

قلبه ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد، واطلب لهم من الله المغفرة وشاورهم في جميع أمورك ليقنتدي بك الناس قال الحسن: «ما شاور قوم قط إلا هُتدوا لأرشد أمورهم»^(١) وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوض أمرك إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحد أن يغلبكم ﴿وَإِنْ يَخْذُكُمُ فَمنَ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله، بيده العزة والنصرة والإدلال والخذلان ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في الغنيمة، والنفي هنا نفي للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل لأن المراد أنه لا يتأتى ولا يصحُّ أن يتصور فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحة له على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافيّاً غير منقوص ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص، فلا يزداد في عقاب العاصي، ولا ينقص من ثواب المطيع ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنِ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿وَمَا أُولَٰئِهِمْ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقرا له ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي متفاوتون في المنازل قال «الطبري»: هم مختلفو المنازل عند الله، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من الله المهانة والعقاب الأليم^(٢) ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجزيهم عليها، ثم ذكر تعالى المؤمنين بالمنة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولا عربياً من جنسهم، عرفوا أمره وخبروا شأنه، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين، لأنهم هم المتفعون ببعثته ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر،

(١) «الطبري» ٧ / ٣٣٤.

(٢) «الطبري» ٧ / ٣٦٧.

فنفقوا من الظلمات إلى النور، وصاروا أفضل الأمم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثة يوم أحد فقتل منكم سبعون ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين هذا البلاء، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر، وموضع التفرع قولهم ﴿أَنَّى هَذَا﴾ مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ﴾ أي وما أصابكم يوم أحد، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإرادته الأزلية وتقديره الحكيم، لتمييز المؤمنون عن المنافقين ﴿وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليعلم أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَجْعَلُنَا﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنك تلقون حرباً لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِأَخَوْنِهِمْ وَفَعَدُوا﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين: إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة.

البلاغة: ١ - ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ... وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر.

٣ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل.

٤ - ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قال أبو حيان: «هذا من الاستعارة

البديعة جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به، وجعل العاصي كالشخص الذي

أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه»^(١).

٥ - ﴿يَسْخَطُ مِنَ اللَّهِ﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف.

٦ - ﴿هُمْ دَرَجَتٌ﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة، فالمؤمن درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة^(٢).

٧ - ﴿لِلْكَافِرِ... لِلْإِيمَنِ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُبَدُونَ... يُخْفُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٨ - ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بينهما جناس الاشتقاق، وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: في هذه الآية ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق، ومن عجب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أذناهم إلى التواضع، فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً وأزكاهم عملاً وأسماهم كرماً وأفصحهم بياناً وكلها من دواعي العظمة، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويجب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل.

فائدة: التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين: أحدهما محبة الله للعبد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣) [الطلاق: ٣].

قال الله تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣٩﴾ فَوَجِبَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٤٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾ الَّذِينَ قَالَتْ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٤٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا

(١) «البحر المحيط» ١٠١/٣.

(٢) «تلخيص البيان» ص ٢٢. (ش): اتضع فلان: وضع، صار دنياً مخطوطاً القدر.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/١٢٢.

وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مِنَ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أحد، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية، وتوضح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة.

اللغة: ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ﴾ يفرحون وأصله من البشارة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية: وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿وَأَسْتَعَى اللَّهَ﴾ [التغابن: ٦] ﴿الْقَرْحُ﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قَالَ الشَّاعِرُ:

فَتَمَلُّا بَيْتَنَا إِقْطَا^(١) وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شَبْعٍ وَرِيَّ
﴿حَظًّا﴾ الحظ: النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيد يكون للخير ﴿نُمْلِي﴾
الإملاء: التأخير والإمهال قال «القرطبي»: والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش^(٢)
﴿يُمَيِّزُ﴾ يُمَيِّزُ يقال: ماز وميز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وَأَمْتَنُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾
[يس: ٥٩] ﴿يَجْتَنِي﴾ يختار ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ من الطوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ. فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشَرَبَهُمْ وَمَقِيلَهُمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لَيْلًا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلَا يَنْكَلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أَبْلُغُهُمْ عَنْكُمْ. قَالَ: فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﷻ». إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٣).

ب - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي قَتْلَ يَوْمٍ أَحَدٍ وَتَرَكَ عِيَالًا وَدِينًا. قَالَ: «أَفَلَا أَبْشُرَكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ». قَالَ قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَخِيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا^(٤)» فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَىَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُخَيِّبُنِي فَأَقْتُلْ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ». فَانْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) (ش): (الْأَقْطُ): لبن محض يُجَمَّدُ حَتَّى يَسْتَحْجَرَ، أَيْ يَصِيرُ صَلْبًا، وَيُطَبَّخُ أَوْ يُطَبَّخُ بِهِ. (وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شَبْعٍ وَرِيَّ): يحتمل معنيين: أحدهما أعط كل ما كان لك وراء شبعك وريك، والآخر القناعة باليسير. أَيْ اقْنَعْ مِنَ الْغِنَى بِمَا يُشْبِعُكَ وَيُرْوِيكَ وَجُدْ بِمَا فَضَّلَ، وَهَذَا الْمَثَلُ لَامِرٌ الْقَيْسَ يَذْكُرُ مِعْزَى كَانَتْ لَهُ.

(٢) «القرطبي» ٢٨٦/٤.

(٣) «أسباب النزول» ص ٧٣ و«القرطبي» ٢٦٨/٤. (ش): (رواه أبو داود وحسنه الألباني).

(٤) كِفَاحًا: أَيْ مُوَاجَهَةً بَدُونِ حِجَابٍ وَلَا رَسُولٍ.

فَتِلْوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴿١﴾ الآية.

التفسير: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ أي لا تظنن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أَمْوَاتًا لا يُحْسِنُونَ ولا يتنعمون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنات الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشيّاً قال الواحدي: الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون^(٢) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي هم منعمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي بأن لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أكد استبشارهم ليذكر ما تعلق به من النعمة والفضل. والمعنى: يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب، فالنعمة ما استحقوقه بطاعتهم، والفضل ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أحد قال ابن كثير: وهذا كان يوم «حمراء الأسد»^(٣) وذلك أن المشركين لما أصابوا من المسلمين كرواً راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تَمُوتُوا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة^(٤)، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريههم أن بهم قوة وجلدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر أحدًا فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ^(٥) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجر العظيم والثواب الجزيل

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في «القرطبي» ٢٦٨/٤. (ش): حَسَنَهُ الْأَلْبَانِي.

(٢) (ش): عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَالَ أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ «أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعُرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْفَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَىَّ شَيْءٍ نَسْتَهْوِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسَأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرُكُوا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) حمراء الأسد مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة.

(٤) (ش): أي ندموا على عدم القضاء على أهل المدينة وجعل «أحد» المعركة الفاصلة.

(٥) «مختصر ابن كثير» ٣٣٨/١.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصي فخافوا على أنفسهم فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي قال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ﴾ أي لم ينالهم مكروه أو أذى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ أي إنما ذلكم القائل ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ بقصد تشييط العزائم هو الشيطان يخوفكم أوليائه وهم الكفار لترهبوهم ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقا أن تعصوا أمري فتهلكوا، والمراد بالشيطان «نعيم ابن مسعود الأشجعي» الذي أرسله أبو سفيان ليشبط المسلمين، قال أبو حيان: وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشئ عن وسوسته وإغوائه وإلقائه^(١). ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضرروا الله شيئا وإنما يضررون أنفسهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشيبته ألا يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل، لن يضرروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يظنن الكافرون أن إمهالنا بدون جزاء وعذاب، وإطالنا لأعمارهم خير لهم ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٠.

(ش): ليس في «تفسير ابن كثير» بل في «البحر المحيط» في التفسير» لأبي حيان الأندلسي (٣/ ٤٤٠). فقال: «وقيل: المراد بالشيطان نعيم بن مسعود».

(ش): قول من قال: إن الآية نزلت في خروج النبي ﷺ إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان، وإن الناس هنا هو نعيم بن مسعود - قول ضعيف. (تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ١٤١). قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٧٢): ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ أي: يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَائِهِ، وَيُوْهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَذَوُو شِدَّةٍ.

يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿١﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنه سيميّز له المؤمن من المنافق. والمعنى: لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يتبليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء، كما فعل في غزوة أحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير: «أي لا بدّ أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفصح بها عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر، كما ميّز بينهم يوم أحد»^(١). ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ قال «الطبري»: وأولى الأقوال بتأويله: أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والإبتلاء كما ميّز بينهم يوم أحد بالبأساء وجهاد عدوه^(٢) ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على المنافقين ﴿فَاتَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحى من الله ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وإن تصدّقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله. والمعنى: لا يحسن البخل أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه، بل هو مضرة عليه في دينه ودنياه ﴿كُلُّهُوَ سَرٌّ لَهُمْ﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخل شرٌّ لهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في «صحيح البخاري»: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ - أي ثعباناً عظيماً - لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يعني بشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلَا ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الْآيَةَ»^(٣). ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي مطلع على أعمالكم.

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٠.

(٢) «الطبري» ٧/ ٤٢٧.

(٣) (ش): (مُثِّلَ لَهُ) أَي صَوَّرَ. وَالْمِرَاثُ الشُّجَاعُ: الْحَيَّةُ الذَّكْرُ، وَقِيلَ: الَّذِي يَقُومُ عَلَى ذَنْبِهِ وَيُؤَاتِي الْفَارِسَ. وَالْأَقْرَعَ مِنْ الْحَيَّاتِ الَّذِي يُبَيِّضُ رَأْسَهُ مِنَ السَّمِّ. (لَهُ زَيْبَتَانِ) هُمَا النُّكَّتَانِ السُّودَاوَانِ فَوْقَ عَيْنَيْهِ، وَقِيلَ: نُقْطَتَانِ يَكْتَنِفَانِ فَاهُ، وَقِيلَ: لَحْمَتَانِ عَلَى رَأْسِهِ مِثْلَ الْقُرْنَيْنِ، وَقِيلَ: نَابَانِ يَخْرُجَانِ مِنْ فِيهِ. (يُطَوَّقُهُ) أَي يُصِيرُ لَهُ ذَلِكَ الثَّعْبَانِ طَوَّقًا. (ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ) فَاعِلٌ يَأْخُذُ هُوَ الشُّجَاعُ، وَالْمَأْخُوذُ يَدٌ صَاحِبُ الْمَالِ كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَكُونُ كَنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَقْرَأُ مِنْهُ صَاحِبُهُ، فَيَطْلُبُهُ وَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ» قَالَ: «وَاللَّهُ لَنْ يَزَالَ يَطْلُبُهُ حَتَّى يَبْسُطَ يَدَهُ فَيَلْقِمَهَا فَاهُ». (رواه البخاري). قَوْلُهُ: (بِلَهْزِمَتَيْهِ): الشَّدَقَيْنِ، وَقِيلَ: هُمَا الْعِظْمَانِ الْفَانَتَانِ فِي اللَّحْيَيْنِ تَحْتَ الْأُذُنَيْنِ. وَقِيلَ: هُمَا لَحْمُ الْخَدَيْنِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ إِذَا أَكَلَ الْإِنْسَانُ. (ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ) فَاتِّدَهُ هَذَا الْقَوْلُ الْحَسْرَةَ وَالزِّيَادَةَ فِي التَّعْذِيبِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، وَفِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّهَكُّمِ.

البلاغة: قال في «البحر»: تضمنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبدیع: الإطناب في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وفي ﴿لَنْ يَضُرُّوْا﴾ وفي اسم الجلالة في مواضع، والطباق في ﴿أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ وفي ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ والاستعارة في ﴿أَشْتَرُوا الْكُفْرَ﴾ وفي ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وفي ﴿الْحَيْثِ وَالطَّيِّبِ﴾ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع^(١).

فائدة: قوله تعالى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار قال السيوطي في «الإكليل»: يستحب قول هذه الكلمة عند الغم والأمور العظيمة.

قال الله تعالى:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَّةٌ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتَجُوبُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْتَسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المناسبة: بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد وما فيها من أحداث جسيمة، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام والغدر بالمسلمين وتثييط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبل، والكيد والدس، ليحذر المؤمنين من خطرهم كما حذرهم من المنافقين، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر، ثم نقضهم للعهد، وقتلهم للأنبياء، وخيانتهم للأمانة التي حملهم الله إيّاها، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون.

اللغة: ﴿عَهْدَ إِلَيْنَا﴾ أوصانا ﴿يُقْرَبَانِ﴾ القربان: ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات الواضحات والمراد هنا المعجزات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزُّبُر وهو الكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالزُّكُوب بمعنى المركوب قال الزجاج: الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿رُحِزَ﴾ الرحزة: التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فَازَ﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الْفُرُورِ﴾ مصدر غرّه يغره غروراً أي خدعه ﴿مَتَّعَ﴾ المتاع: ما يُتَمَتَّعُ به ويُتَمَتَّعُ ثم يزول ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لَتُمَتَّحُنَّ، من بلاء أي امتحنه ﴿عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ أصل العزم ثبات الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بمنجاة من قولهم: فاز فلان إذا نجا.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن ابن عباس قال: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ذَاتَ يَوْمٍ بَيْتَ مَدْرَاسِ الْيَهُودِ، فَوَجَدَ نَاسًا مِنَ الْيَهُودِ قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: فَنَحَاصُ بْنُ عَازُورَاءَ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفَنَحَاصٍ: أَتَقِ اللَّهَ وَأَسْلِمَ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ، فَأَمِنْ وَصَدِّقْ وَأَقْرَضِ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ وَيُضَاعِفُ لَكَ الثَّوَابَ، فَقَالَ فَنَحَاصٌ: يَا أَبَا بَكْرٍ تَزْعُمُ أَنَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُنَا أَمْوَالَنَا وَمَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا لَفَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا اسْتَقْرِضَنَا أَمْوَالَنَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَضَرَبَ وَجْهَ فَنَحَاصٍ ضَرْبَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَذَهَبَ فَنَحَاصٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، انْظُرْ إِلَى مَا صَنَعَ بِي صَاحِبُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَبِي بَكْرٍ: «مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ قَالَ قَوْلًا عَظِيمًا، زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنِيَاءُ، فَغَضِبْتُ لِلَّهِ وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَحَدَّ ذَلِكَ فَنَحَاصٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - رَدًّا عَلَى فَنَحَاصٍ وَتَصْدِيقًا لِأَبِي بَكْرٍ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية^(١).

ب - عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ - منهم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وفنحاص بن عازوراء - وغيرهم فقالوا: يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار، فإن جئتنا بهذا صدقناك فنزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ الآية^(٢).

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٧٦ و«مختصر ابن كثير» ٣٤٢ / ١.

(ش): إسناده حسن، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ١٢١ / ٩. (ش): موضوع.

التفسير: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هذه المقالة الشيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير، وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالوا: إن الله فقير يقترض منا كما قالوا: ﴿يُدُّ اللَّهُ مَغْلُوبَةً﴾ [المائدة: ٦٤] قال «القرطبي»: وإنما قالوا هذا تمويهًا على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا^(١) ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشيعة بقتل الأنبياء بغير حق، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة: ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم، وعدل الله تعالى فيكم، قال الزمخشري: ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن^(٢) ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي هم الذين قالوا: إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدم قربانًا فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخًا وإظهارًا لكذبهم: قد جاءكم رسل قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بالله والتصديق برسله؟ ثم قال تعالى مسليًا لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذبت أسلافهم من قبل رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْأَمِينِ﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفس ميّنة لا محالة كقوله ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْنَا فَاِنَّ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿وَأَنَّمَا نُؤَفِّقُكُمُ الْيُسْرَىٰ وَأَوْرَثَكُمُ الْيُسْرَىٰ﴾ أي تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة ﴿فَمَنْ رُّحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي فمن نحي عن النار وأبعد عنها، وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السَّرمَدِيَّةِ^(٣) والنعيم المخلّد

(١) «القرطبي» ٣٩٤/٤.

(٢) «الكشاف» ٣٤٤/١.

(٣) (ش): سَرْمَدِي: دائم متصل لا ينقطع.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحقق المغرور قال ابن كثير: الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة^(١) ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي والله لَتُمتَحَنَنَّ وَتُخَبَّرَنَّ في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿وَلَسَمِعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ أي وَلَيَنَالَنَّكُمْ من اليهود والنصارى والمشركين - أعدائكم - الأذى الكثير، وهذا إخبارٌ منه جلّ وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجار، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن الجنة حُفَّتْ بالمكارة^(٢) ولهذا قال ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصبروا على المكارة وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها لأنها مما أمر الله بها ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ أي لتظهرنَّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا تخفونها، قال ابن عباس: هي لليهود أخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه^(٣) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حُطام الدنيا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما أُوتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارَفٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أُوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه^(٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه جميع ما في السماوات والأرض فكيف يكون من له ما في السماوات والأرض فقيراً؟ والآية ردٌّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم. البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي: ١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ أكد اليهود الجملة بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ على سبيل المبالغة، فحيث نسبوا إلى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج إلى تأكيد كأن الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان.

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٤٣.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ». رواه مسلم.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٢٦.

(٤) «الكشاف» ١/ ٣٤٥.

- ٢ - ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب^(١) وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً.
- ٣ - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تراول بهن.
- ٤ - ﴿تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسة اللسان.
- ٥ - ﴿مَتَّعَ الْغُرُورَ﴾ قال الزمخشري: «شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المُستَمِّم»^(٢) ويُغَرَّ حتى يشتره والشيطان هو المدلس الغرور»^(٣) فهو من باب الاستعارة.
- ٦ - ﴿فَبَدَّلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء شبه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان وباشترائه ثمن قليل ما تعوضه من الحطام على كتم آيات الله.
- ٧ - وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فَقِيرٌ - أَغْنِيَاكُمْ﴾ والمقابلة ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ وفي ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ... وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ والجناس المغاير في ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ﴾. فائدة: صيغة فعال في الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦] ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطار ونجار وتمار كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك.
- وَمَعَ فَاعِلٍ وَفَعَّالٍ فَعِلٌ فِي نَسَبٍ أَغْنَى عَنِ الْيَا فَقُبِلَ^(٤)
- تنبيه:** إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور، لِمَا تُنَمِّيه لَذَائِهَا وشهواتها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه، ولهذا قال بعض السلف: الدنيا متاعٌ متروك يوشك أن يضمحلَّ ويزول، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان.

(١) (ش): ما الدليل على هذا النفي وفي الحديث الصحيح أن الله ﷻ كَتَبَ لِمُوسَى ﷺ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ.

(٢) (ش): السَّوْمُ: عَرْضُ السَّلْعَةِ عَلَى الْبَيْعِ. وَيُقَالُ: اسْتَمَّ مَنِّي سِلْعَتِي اسْتِيْمًا إِذَا كَانَ هُوَ الْعَارِضَ عَلَيْكَ التَّمَنُّ. وَسَامَنِي الرَّجُلُ بِلِيعَتِهِ سَوْمًا: وَذَلِكَ حِينَ يَذْكُرُ لَكَ هُوَ ثَمَنَهَا.

(٣) «الكشاف» ١/ ٣٤٥.

(٤) (ش): (ومع فاعل وفَعَّال فعل) هذه ثلاث صيغ للمبالغة، (في نسب أغنى عن اليا)؛ يعني: ياء النسب، معناه أنه يصاغ على وزن فاعل، وعلى وزن فَعَّال، وعلى وزن فَعَل، للنسبة عوضاً عن الياء، فيقال في الرجل كثير البيع للتمر: تامر، وكذلك الرجل كثير بيع اللبن، أو كثير شرب اللبن، يقال: لابن. والفَعَّال كثير ولاسيما في الحرف، مثل بناء ونجار وحداد وصناع. وأما فَعِل فهو قليل، لكنه موجود مثل نَهر: نسبة إلى النهار.

قال الله تعالى:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١١٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١١٥﴾ لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ إِلَهُادُ ﴿١١٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزِّلَا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١١٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِدْرًا مُّصَابِرًا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾

المناسبة: بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوجدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات الكريمة تثير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوجدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور «الكون الفسيح» بعد أن تأمل في كتاب الله المنظور «القرآن العظيم» وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ .

اللغة: ﴿الْأَلْبَابِ﴾ العقول ﴿بَطْلًا﴾ عبثًا بدون حكمة ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيه لله عن السوء ﴿أَخْرَجْتَهُ﴾ أذللته وأهنته ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا﴾ استر وامح ﴿الْأَبْرَارِ﴾ جمع برّ أو بارّ، وهم المستمسكون بالشرعية ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب ﴿نُزِّلَا﴾ النزل: ما يُهَيَّأ للنزول وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿وَرَاطِبُوا﴾ المراقبة: ترصّد العدو في الثغور.

سبب النزول: عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة

بشيء فأَنْزَلَ اللهُ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي﴾ الآية (٢).
التفسير: ﴿إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن في خلق السماوات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿وَاخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لَا يَنبَغِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكير والاستدلال لا كما تنظر البهائم (٣)، ثم وصف تعالى أولي الأبواب فقال ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرون الله بألستهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يتدبرون في ملكوت السماوات والأرض، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثًا من غير حكمة ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ننزهك يا الله عن العبث فأَجْرْنَا واحْمِنَا من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ أي من أدخلته النار فقد أذلته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي داعيًا يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أَنۢ أٰمَنُوا بِرَبِّكُمۡ فَآمَنَّا﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي أَلْحِقْنَا بِالصالحين قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] فلا تكرر إذا ﴿رَبَّنَا وَآئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن عباس ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿رَبَّنَا وَآئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا

(١) «الطبري» ٤٨٨/٧، و«أسباب النزول» ص ٨٠.

(٢) (ش): عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهَجْرَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

(٣) «البحر المحيط» ١٤٢/٣.

أُضِيعَ عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أُنْثِيَ ﴿١﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أبطل عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل أو أنثى قال الحسن: مازالوا يقولون ربنا، ربنا، حتى استجاب لهم^(١) ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر^(٢) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي هجروا أو طانهم فَارَيْنَ بدينهم، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ أي وقتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَبْعَاتِهِمْ﴾ أي الموصوفون بما تقدم لَا مُحَوَّنَ ذُنُوبُهُمْ بِمَغْفِرَتِي وَرَحْمَتِي ﴿وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ولأدخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم نبه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذا الدار من النعمة والغبطة والسرور، وبيّن أنه نعيم زائل فقال ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي لا يخدعك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول هذا النعيم، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس الفراش والقرار نار جهنم. ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً ﴿نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأصحابه، والنجاشي وأتباعه^(٣) ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَآيِنَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يحرفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرض من الدنيا خسيس كما فعل الأخبار والرهبان ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفاً كما قال ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي سريع حسابه لنفوذ علمه بجميع المعلومات، يعلم ما لكل واحدٍ من الثواب والعقاب، قال ابن عباس والحسن:

(١) «القرطبي» ٣١٨/٤.

(٢) قال «الطبري»: بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر.

(٣) (ش): فقد دخلوا الإسلام وآمنوا بالنبي ﷺ.

نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه: قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي، فقال بعضهم لبعض: يأمرنا أن نصلي على عليج^(١) من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾^(٢) الآية ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ أي اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿وَرَاطِبُوا﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي:

- ١ - الإطناب في قوله ﴿رَبَّنَا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع.
- ٢ - الطباق في قوله ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ و ﴿الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ و ﴿قِيَمًا وَقُعُودًا﴾ و ﴿ذُكْرٍ أَوْ أُنْثَى﴾.
- ٣ - الإيجاز بالحذف ﴿مَا وَعَدْنَاهُ عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك وكذلك في قوله ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قائلين ربنا.
- ٤ - الجناس المغاير في قوله ﴿ءَامِنُوا... فَعَامِنَا﴾ وفي ﴿عَمَلٍ عَمِلٍ﴾ وفي ﴿مُنَادِيًا يُنَادِي﴾.
- ٥ - ﴿لَا كَيْتَ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إن لزيادة التأكيد.
- ٦ - الاستعارة في قوله ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استعير القلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم.

الفوائد: الأولى: إنما خصص التفكير بالخلق للنهي عن التفكير في الخالق ففي الحديث الشريف «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره»^(٣) وذلك لعدم الوصول إلى كنهه^(٤) ذاته وصفاته قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء.

الثانية: تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف

(١) (ش): العليج: الرجل من كفار العجم وغيرهم.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ١٤٨، و«القرطبي» ٤/ ٣٢٢.

عن أنس؛ قال: لما جاء نعي النجاشي؛ قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا عَلَيْهِ»، قالوا: يا رسول الله! نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله - عز وجل -: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ (صحيح، أخرجه النسائي في «تفسيره»، والطبراني في «الأوسط»).

(٣) (ش): (رواه أبو الشيخ، وضعفه الألباني). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ - عز وجل -» رواه الطبراني وغيره، وحسنه الألباني).

(٤) (ش): كُنْهُ الشَّيْءِ: جوهر وأصله وحقيقته.

وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح.

الثالثة: سئلت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن أعجب ما رآته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، «أتاني في ليلتي حتى مسح جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عزَّ وجلَّ» فقلت: والله إني لأحب قربك وأحب هواك، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكسر صبَّ الماء ثم قام يصلي فبكي حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكي حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكي حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال: يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال «ويحك يا بلال وما يمنعي أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ الآية ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران»



(١) أخرجه ابن مردويه، وانظر «ابن كثير» ١/ ٣٤٨.

(ش): سَأَلْتُ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ أَعْجَبَ شَيْءٍ رَأَتْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي». قُلْتُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ فُرْبَكَ وَأَحِبُّ مَا يَسُرُّكَ». قَالَتْ: فَفَقَامَ فَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يَصُلي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حَجْرُهُ. قَالَتْ: وَكَانَ جَالِسًا فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي ﷺ حَتَّى بَلَ لِحْجَتَهُ. قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً، وَيَلْ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا». ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

رواه ابنُ حبان وحسنه الألباني. وقوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» رواه البخاري.



مدنية وآياتها ست وسبعون ومائة

بين يدي السورة

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تعني بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت «سورة النساء»!

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأولياء والأوصياء، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج، واستنقذنهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة.

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة.

* كما تعرضت بالتفصيل إلى «أحكام الموارث» على الوجه الدقيق العادل، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة، وتحدثت عن المحرمات من النساء «بالنسب، والرضاع، والمصاهرة».

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت أنها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، وإنما هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب.

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى «قوامة الرجل» وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته.

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى «دائرة المجتمع» فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البناء قوي الأركان.

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء.

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية.

واستتب الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكائدهم وخطرهم.

* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام.

* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى ابن مريم حيث غالوا فيه حتى عبده ثم زعموا أنه صُلب^(١) مع اعتقادهم بألوهيته، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين، وقد دعتهم الآيات إلى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السليمة الصافية «عقيدة التوحيد» وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

التسمية: سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْوَصِيَّةَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكُمْ ۚ وَارْبِعُوا ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَذَىٰ ۚ لَا تَعُولُوا ۝ (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ ۚ فَإِنْ كَانَ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَاءً مَرِيئًا ۝ (٤) وَلَا تَتَّبِعُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ (٥) وَابْنُوا لِلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۚ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝ (٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۚ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ (١٠)

(١) وقد أحسنَ مَنْ قال:

يَهُودِيٌّ فَمَا هَذَا إِلَّا لَهُ؟

إِذَا صُلبَ إِلَهُ بِفِعْلِ عَبْدٍ

اللغة: ﴿وَبَتَّ﴾ نشر وفرق ومنه ﴿وَزَرَأِيْ مُبْتَوِّئَةً﴾ [الغاشية: ١٦] ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في بطن أمه، ثم أطلق على القرابة ﴿رَقِيْبًا﴾ الرقيب: الحفيظ المطلع على الأعمال ﴿حُوبًا﴾ الحُوب: الذنب والاثم ﴿تَعُولُوا﴾ تميّلوا وتجوروا يقال: عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار ﴿صَدَقْتِهِنَّ﴾ جمع صدقة وهو المهر ﴿مَحَلَّةً﴾ هبة وعطية ﴿السُّفَهَاءَ﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا المبذرون للأموال ﴿ءَاثَسْتُمْ﴾ أبصرتهم من أنس الشيء أبصره ﴿وَيَدَارًا﴾ أي مبادرة، بمعنى مسارعة، أي يسارع في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيم فيتسلّمها منه ﴿سَدِيدًا﴾ من السداد بمعنى الاستقامة.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ فقالت: يا ابن أخي هذه البيّمة تكون في حجر وليّها تشركه في ماله، ويعجبه مالهها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيهما مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن ذلك إلا أن يُقسطوا لهنّ ويبلغوا لهنّ أعلى ستهن في الصداق، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] ^(١) الآية.

ب - عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له «مرثد بن زيد» ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾ ^(٢) الآية.

التفسير: افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، منبهاً لهم على قدرته، ووحدانيته فقال ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿وَبَتَّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي نشر وفرق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكورا وإناثا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول: أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْبًا﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين: في أول الآية، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فالناس جميعاً من أصل واحد، وهم إخوة في الإنسانية والنسب، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهم الأخضر واليابس، وتقضي على الكهل والوليد،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) «القرطبي» ٥/ ٥٣، و«أسباب النزول» ص ٨٣.

(ش): لا يصح لانقطاعه، فمقاتل بن حيان تُوفِّي في حُدُودِ الْحَمْسِينَ وَمِائَةٍ.

ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيرًا وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات أبائهم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيِّثَ بِالْطَّيِّبِ﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعًا ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي ذنبًا عظيمًا، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله، ثم أرشد تعالى إلى ترك الزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي إذا كانت تحت جبر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيق الله عليه^(١) ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثًا وإن شاء أربعًا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوْحَةً﴾ أي إن خفتهم من عدم العدول بين الزوجات فالزموها الاقتصار على واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات ﴿ذَلِكَ أَذْفَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ أي أعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيء من الصداق ﴿فَكُلُّهُ هِنًا مَرِيئًا﴾ أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالًا طيبًا ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قيامًا للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها قال ابن عباس: السفهاء هم الصبيان والنساء قال «الطبري»: لا تؤت سفهًا ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره، صبيًا كان أو رجلًا، ذكرًا كان أو أنثى^(٢) ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي أطعموهم منها واكسوهم ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي قولًا لنا كقولكم إذا رشدتم سلمنا إليكم أموالكم ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سن النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح ﴿فَإِنْ ءَاثَسْتُم مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي إن أبصرتهم منهم صلاحًا في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي من كان منكم غنيًا أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجرًا على وصايته ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ومن كان فقيرًا فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا

(١) اختار «الطبري» أن المعنى: إن خفتهم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضًا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير.

(٢) «الطبري» ٥٦٥/٧.

عَلَيْهِمْ ﴿١﴾ أَيِ فَإِذَا سَلِمْتُمْ إِلَى الْيَتَامَى أَمْوَالِهِمْ بَعْدَ بَلُوغِهِم الرِّشْدَ فَأَشْهَدُوا عَلَى ذَلِكَ لئَلَّا يَجْحَدُوا تَسْلِمَهَا ﴿٢﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣﴾ أَيِ كَفَى بِاللَّهِ مُحَاسِبًا وَرَقِيبًا، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ نَصِيبًا مِّنْ تَرَكَةِ الْأَقْرَبَاءِ فَقَالَ ﴿٤﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴿٥﴾ أَيِ لِلأَوْلَادِ وَالْأَقْرَبَاءِ حِظٌّ مِّنْ تَرَكَةِ الْمَيِّتِ كَمَا لِلنِّبَاتِ وَالنِّسَاءِ حِظٌّ أَيْضًا الْجَمِيعِ فِيهِ سَوَاءٌ يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ وَإِنْ تَفَاوَتُوا فِي قَدَرِهَا، وَسَبَبِهَا أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ كَانُوا لَا يورَثُونَ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَرِثُ مَنْ يَحَارِبُ وَيُدْبُّ عَنِ الْحَوَازَةِ (١) فَأَبْطَلَ اللَّهُ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿٦﴾ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴿٧﴾ أَيِ سَوَاءٌ كَانَتِ التَّرَكَةُ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً ﴿٨﴾ نَصِيبًا مَّقْرُوضًا ﴿٩﴾ أَيِ نَصِيبًا مَقْطُوعًا فَرَضَهُ اللَّهُ بِشَرْعِهِ الْعَادِلِ وَكِتَابِهِ الْمُبِينِ ﴿١٠﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴿١١﴾ أَيِ إِذَا حَضَرَ قِسْمَةَ التَّرَكَةِ الْفُقَرَاءُ مِنْ قَرَابَةِ الْمَيِّتِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ مِنْ غَيْرِ الْوَارِثِينَ فَأَعْطُوهُمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ التَّرَكَةِ تَطْيِيبًا لِّخَاطِرِهِمْ ﴿١٢﴾ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١٣﴾ أَيِ قَوْلًا جَمِيلًا بِأَن تَعْتَذِرُوا إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لِلصَّغَارِ وَأَنْكُمْ لَا تَمْلِكُونَهُ ﴿١٤﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴿١٥﴾ نَزَلَتْ فِي الْأَوْصِيَاءِ، أَيِ: تَذَكَّرْ أَيُّهَا الْوَصِيُّ ذَرِيَّتَكَ الضَّعَافَ مِنْ بَعْدِكَ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَعَامِلُ الْيَتَامَى الَّذِينَ فِي حِجْرِكَ بِمِثْلِ مَا تَرِيدُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ أَبْنَاؤُكَ بَعْدَ فَقْدِكَ ﴿١٦﴾ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٧﴾ أَيِ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي أَمْرِ الْيَتَامَى وَلْيَقُولُوا لَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ لِأَوْلَادِهِمْ مِنْ عِبَارَاتِ الْعُطْفِ وَالْحَنَانِ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ ظُلْمًا ﴿١٩﴾ أَيِ يَأْكُلُونَهَا بِدُونِ حَقِّ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴿٢١﴾ أَيِ مَا يَأْكُلُونَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا نَارًا تَتَّجِعُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢٢﴾ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٢٣﴾ أَيِ سَيَدْخُلُونَ نَارًا هَائِلَةً مُسْتَعْرَةً وَهِيَ نَارُ السَّعِيرِ.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي:

١ - الطَّبَاقُ فِي ﴿غَنِيًّا - فَقِيرًا﴾ وَفِي ﴿قَلَّ - كَثُرَ﴾ وَفِي ﴿رِجَالًا - وَنِسَاءً﴾ وَفِي ﴿الْخَبِيثَ - بِالطَّيِّبِ﴾ .

٢ - وَالْجِنَاسُ الْمَغَايِرُ فِي ﴿دَفَعْتُمْ - فَأَدْعُوا﴾ وَفِي ﴿وَقُولُوا - قَوْلًا﴾ .

٣ - وَالِإِطْنَابُ فِي ﴿فَأَدْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... فَأَذَادَفْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ وَفِي ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ ... وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ .

٤ - وَالْمَجَازُ الْمُرْسَلُ فِي ﴿وَأَنُؤُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أَيِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَامَى فَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَا كَانَ وَكَذَلِكَ ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مَجَازُ مُرْسَلٌ وَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَوَلَّى إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَغْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أَيِ عَنَبًا يَتَوَلَّى إِلَى الْخَمْرِ.

٥ - الْمَقَابَلَةُ اللَّطِيفَةُ بَيْنَ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ . . وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .

(١) (ش): دَبَّ عَنْهُ: دَفَعَ وَمَنَعَ. حَوَازَةُ الرَّجُلِ: مَلِكُهُ.

٦ - والإيجاز في مواضع مثل ﴿رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي ونساء كثيرات ... إلخ.

الفوائد: الأولى: في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفس واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والمواريث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الأحكام الشرعية.

الثانية: الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أعقب بدلائل الوجدانية والربوبية مثل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥] وإذا كان الخطاب للمؤمنين أعقب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب «البحر»^(١).

الثالثة: ذكر البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك: أبصرتُ بعيني وسمعت بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

الرابعة: أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى^(٢) للتنبيه إلى «التكافل بين الأمة» والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفينة للمال فيه مضرّة للمجتمع كله.

«كلمة حول تعدد الزوجات»

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشدّبه^(٣) وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرابية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع أن يحل «مشكلة اجتماعية» هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلاً... إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كِفَتَاهُ فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أنحرّم المرأة من نعمة الزوجية و«نعمة الأمومة» ونتركها تسلك طريق الفاحشة والزيلة، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الأسرة وسلامة المجتمع؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرّع؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريع الإسلام الرائع، بينما وقفت المسيحية حائرة مكتوفة الأيدي لا تبدي ولا تُعيد... إن الرجل الأوربي لا يبيح له دينه التعدد، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة، يرى الوالد

(١) «البحر المحيط» ١٥٣/٣.

(٢) (ش): في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾.

(٣) (ش): شدّب الشجرة: هذبها، قطع ما تفرّق من عيدانها.

منهم فئاته مع عشيقها فيُسّر ويغتبط بل ويمهد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه، ووافقت على قبول مبدأ «تعدد الزوجات» ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد^(١)، ويستطيع الرجل أن يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق، والعلاقة بينهما علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية، فاعجب من منع «تعدد الزوجات» بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية.

رَبِّ إِنَّ الْهُدَى هُدَاكَ وَآيَا
تُكْ حَقُّ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

قال الله تعالى:

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مَضَاكِرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

المناسبة: لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال، أعقبه بذكر أحكام الموارث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات، ثم ذكر نصيب الآباء والأمهات، ثم نصيب الأزواج والزوجات، ثم نصيب الإخوة والأخوات.

(١) (ش): كيف يكون زواجاً حقيقياً وهو بدون عقد، ولعل المؤلف يقصد أن الرجل في الغرب يعيش مع المرأة في الحرام كما يعيش الرجل المسلم مع زوجته في الحلال، فكيف ينكرون التعدد وهو موجود بينهم؟! ومما يدل على ذلك قول المؤلف بعد ذلك: «فأعجب من منع «تعدد الزوجات» بالحلال وإباحته بالحرام».

اللغة: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ الوصية: العهد بالشيء والأمر به، ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فَرِيضَةً﴾ أي حقا فرضه الله وأوجبه ﴿كَكَلَّةٍ﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكَلَّ بمعنى الضعف يقال: كَلَّ الرجل إذا ضَعُفَ وزهبت قُوَّتُهُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها.

سَبَبُ النَزُول: روي أن امرأة «سعد بن الربيع» جاءت رسول الله ﷺ بابنتها فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتِلَ أبوهما سعد معك بأحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا، ولا تنكحان إلا بمال فقال ﷺ: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الموارث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك^(١).

التفسير: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي إن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي فللبنتين فأكثر ثُلُثَا التَّرِكَةِ ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة. . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين، لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي من تركة الميت ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معهما أحد الزوجين ﴿فَلِلْأُمِّ الثُّلُثُ﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّ الشُّدُسُ﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت «اثنان فأكثر» فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقي للأب،

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(ش): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جِئْنَا امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْأَسْوَاقِ فَجَاءَتِ الْمَرْأَةُ بِابْنَتَيْنِ لَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَاتَانِ بِنْتَانِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ قُتِلَ مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَدْ اسْتَقْنَاهُمَا مَالَهُمَا وَمِيرَاثَهُمَا كُلَّهُ فَلَمْ يَدَعْ لِهَمَا مَالًا إِلَّا أَخَذَهُمَا فَمَا تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ لَا تَنْكَحَانِ أَبَدًا إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ». قَالَ وَنَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ادْعُوا لِي الْمَرْأَةَ وَصَاحِبَهَا». فَقَالَ لِعَمَّهُمَا «أَعْطِيَهُمَا الثُّلُثَيْنِ وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثَّمْنَ وَمَا بَقِيَ فَلَكَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ أَخْطَأَ بِشْرُ فِيهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ.

وحسنه الألباني. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنَى سَلَمَةَ يَمْشِيَانِ فَوَجَدَنِي لَا أَعْقِلُ فَدَعَا بَمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَشَ عَلَيَّ مِنْهُ فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَنَزَلَتْ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ﴾ أي إنه تعالى تولى قسمة الموارث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض.. ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي من ميراثهن، وألحق بالولد في ذلك ولد الإبن بالإجماع ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهن أو من غيرهن ﴿إِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ أي فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنيهما ما لا يخفي ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ أي وإن كان الميت يورث كلاله أي لا والد له ولا ولد وورثة أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أَوْ امْرَأَةً﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأة تورث كلاله ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي وللمورث أخ أو أخت من أم ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي فللأخ من الأم السدس وللأخت السدس أيضًا ﴿إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء، قال في «البحر»: وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَرٍ﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام: «الثلث والثلث كثير»^(١) ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بين، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الفلاح العظيم ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول يتجاوز ما حده تعالى له من الطاعات ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرج منها أبداً ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال.

البلاغة: تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي:

١ - الطباق في لفظ ﴿الذَّكَرُ﴾ و﴿الأنثى﴾ وفي ﴿وَمَنْ يُطِيعِ﴾ و﴿وَمَنْ يَعِصِ﴾ وفي ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ و﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾.

٢ - الإطناب في ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِيهِ بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ و﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِيهِ بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر.

٣ - جناس الاشتقاق في ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي﴾.

٤ - المبالغة في ﴿عَلِيمٌ، حَلِيمٌ﴾.

فائدة: استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤيده ما ورد «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»^(١).

تنبيه: وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤنة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق، فنفاقه أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج^(٢).

قال الله تعالى:

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَسَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَاَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا^(١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا^(١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتَوُفُّونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١٨) يَتَأْتِيهَا

(١) (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِطَنْهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّزَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ». قُلْنَا لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

(٢) انظر الحكمة التشريعية في «كتابنا المواريث في الشريعة الإسلامية» ص ١٨.

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمُ إحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

المناسبة: لما بيّن سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، بيّن حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء، وأكل مهورهن، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة.

اللغة: ﴿وَأَلْتِي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿أَلْفَحِشَةً﴾ الفعل القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿وَالَّذَانِ﴾ تشية الذي ﴿التَّوْبَةُ﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح ^(١) ﴿كَرِهًا﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ تمنعهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بُهْتَنًا﴾ ظلمًا وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أَفْضَى﴾ وصل إليها، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا شديدًا مؤكدًا وهو عقد النكاح.

سَبَبُ النَّزُول: روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوبًا، فإن شاء تزوجها بالصدّاق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾. ^(٢)

التفسير: ﴿وَأَلْتِي يَأْتِيَنَّ أَلْفَحِشَةً مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي اللواتي يزني من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي فإن ثبت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي احبسوهن فيها إلى الموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي يجعل الله لهنّ مخلصًا بما يشرعه من الأحكام قال ابن كثير: كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيّنة العادلة حبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت،

(١) (ش): قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِيٍّ، فَلَهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ: أَحَدُهَا: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. وَالثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا. وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعْزِمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ قُدَّ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ. وَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ تَعَلَّقَ بِآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَدَّ قَدْفٍ وَنَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِنْ كَانَتْ غِيْبَةً اسْتَحْلَلَهُ مِنْهَا.

(٢) «زاد المسير» ٣٩/٢.

(ش): رواه البخاري

حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم^(١) ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿فَعَاذُوهُمَا﴾ أي بالتوبيع والتقرير والضرب بالنعال ﴿فَإِنْ تَابَا وَأُصْلِحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفوا عن الإيذاء لهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي مبالغاً في قبول التوبة واسع الرحمة. قال الفخر الرازي: «خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة»^(٢) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مقدراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتقبل الله توبتهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بخلقه حكيماً في شرعه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِثْمَ﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرَرَ»^(٣) ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي يموتون على الكفر فلا يقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي هيأنا وأعدنا لهم عذاباً مؤلماً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج^(٤) ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا

(١) «مختصر ابن كثير» ٣/ ٣٦٦.

(٢) «التفسير الكبير» للرازي ٩/ ٢٣٥.

(٣) (ش): رواه الترمذي، وحسنه الألباني. وَالْعَرَّغَةَ هي وصول الروح للحلقوم، وهذا هو الوقت الذي قد يعاين فيه بعض الناس الملائكة. وقد دلت الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة، وأما متى وقع الإياس من الحياة وعاین الملك وحشرت الروح في الحلق وضاق بها الصدر فلا توبة مقبولة حينئذ. ويشرع دعوة الكافر عند احتضاره إلى الإسلام، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ قد عرض الإسلام على عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة فجاءه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال له: «يَا عَمَّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وكذلك عرض ﷺ الإسلام على الغلام اليهودي الذي كان يخدمه فأسلم. رواه البخاري. والتوفيق بين الآيات والحديث هو أن الغلام لم يبلغ درجة الغرغرة، والله تعالى يقبل توبة كل من المسلم والكافر إذا تاب توبة صادقة قبل الغرغرة.

(٤) «القرطبي» ٥/ ٩٤.

بَعْضُ مَا أَتَيْتُمُوهُنَّ ﴿١﴾ أَي لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَمْنَعُوهُنَّ مِنَ الزَّوْجِ أَوْ تَضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا دَفَعْتُمُوهُ لِهِنَّ مِنَ الصَّدَاقِ ﴿٢﴾ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴿٣﴾ أَي إِلَّا فِي حَالِ إِيْتَانِهِنَّ بِفَاحِشَةِ الزَّنا وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَةُ النِّشُوزُ وَالْعَصْيَانُ ﴿٤﴾ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴿٥﴾ أَي صَاحِبُوهُنَّ بِمَا أَمَرَكَمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ طَيِّبِ الْقَوْلِ وَالْمَعَامَلَةِ بِالْإِحْسَانِ ﴿٦﴾ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٧﴾ أَي فَإِنْ كَرِهْتُمْ صَحْبَتَهُنَّ فَاصْبِرُوا عَلَيْهِنَّ وَاسْتَمِرُّوا فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ فَعَسَى أَنْ يَرْزُقَكُمْ اللَّهُ مِنْهُنَّ وَلَدًا صَالِحًا نَقَرُ بِهِ أَعْيُنَكُمْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ فِي الشَّيْءِ الْمَكْرُوهِ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «لَا يَفْرُكُ» أَي «لَا يُبْغِضُ» مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»^(١). ثُمَّ حَذَّرَ تَعَالَى مِنْ أَخْذِ شَيْءٍ مِنَ الْمَهْرِ بَعْدَ الطَّلَاقِ فَقَالَ ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ﴾ أَي وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نِكَاحَ امْرَأَةٍ مَكَانَ امْرَأَةٍ طَلَقْتُمُوهَا ﴿وَأَتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي وَالْحَالِ أَنْكُمْ كُنْتُمْ قَدْ دَفَعْتُمْ مَهْرًا كَبِيرًا يَبْلُغُ قِنطَارًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي فَلَا تَأْخُذُوا وَلَوْ قَلِيلًا مِنْ ذَلِكَ الْمَهْرِ ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ أَي أَتَأْخُذُونَهُ بَاطِلًا وَظُلْمًا؟ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَي كَيْفَ يَبَاحُ لَكُمْ أَخْذُهُ وَقَدْ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِنَّ بِالْمَعَاشِرَةِ الزَّوْجِيَّةِ؟ ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَي أَخَذَنْ مِنْكُمْ عَهْدًا وَثِيقًا مُؤَكَّدًا هُوَ «عَقْدُ النِّكَاحِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَفِي الْحَدِيثِ «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»^(٢).

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات أنواعًا من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي:

- ١ - المجاز العقلي في قوله ﴿يَتَوَفَّيْنَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ والمراد يتوفاهنَّ الله أو ملائكته.
 - ٢ - الاستعارة ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي.
 - ٣ - الجناس المغاير في ﴿فَإِنْ تَابَا... تَوَابَا﴾ وفي ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى... أَنْ تَكْرَهُوا﴾.
 - ٤ - المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده ﴿وَأَتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه.
- فَائِدَةٌ:** كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْجَمَاعِ بِلَفْظِ الْإِفْضَاءِ ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ لَتَعْلِيمِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَدَبَ الرَّفِيعَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الْإِفْضَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْجَمَاعُ وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يَكْنِي»^(٣).

(١) (ش): رواه مسلم

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) «القرطبي» ١٠٢/٥.

تنبيه: خطب عمر رضي الله عنه فقال: أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدق امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا؟ يقول تعالى ﴿وَأَتَيْتُمُ إحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ فقال رضي الله عنه: أصابت امرأة وأخطأ عمر^(١).

قال الله تعالى:

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ قَتَلُوا مُبَلِّغًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونِ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وظَلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

المناسبة: لما أوصى تعالى بحسن معاشره الأزواج، وحذر من إيذاهن أو أكل مهورهن، عقبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع.

(١) «الكشاف» ١/ ٣٧٩. (ش): هذه القصة باطلة. وقد ضعفها الألباني وغيره.

اللغة: ﴿سَلَفَ﴾ مضى ﴿وَمَقَّتًا﴾ المقت: البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه «نكاح المقت» ﴿وَرَبَّيْبُكُمْ﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تربي في حجر الزوج ﴿حُجُورَكُمْ﴾ جمع حَجْرٌ ^(١) أي في تربيتمكم يقال: فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة: في حجورك أي في بيوتكم ﴿وَحَلِيلٌ﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ متعفين عن الزنى ﴿مُسْفِحِينَ﴾ السفاح: الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصبّ وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طَوَلًا﴾ سعةً وغنى ﴿أَخْدَانٍ﴾ جمع خِدَنٌ وهو الصديق للمرأة يزني بها سرّاً ﴿أَلْعَنَتَ﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سُنَنَ﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نُصْلِيهِ﴾ ندخله.

سَبَبُ النُّزُول: أ - لما توفي «أبو قيس بن الأسلت» وكان من صالحى الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدك ولداً! ولكنني آتي رسول الله ﷺ أستأمره فأثته فأخبرته فأنزله الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ ^(٢) الآية.

ب - عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهن أزواج، فكرهنا أن نفع عليهن فسالنا النبي ﷺ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ الآية قال: فاستحللناهن ^(٣).

التفسير: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا﴾ أي فإن

(١) (ش): حَجْرٌ / حَجَرٌ - بالفتح والكسر مع سكون الجيم - هو ما يحويه مجتمع الرجلين للجالس المترجّع. والمراد به هنا الحضانة والكفالة والعطف.

(٢) «القرطبي» ١٠٤/٥.

(ش): ضعيف جداً بهذا السياق، رواه الطبراني وغيره. وعن ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ قَالَ كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِأَمْرَاتِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَزَوَّجُوا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي ذَلِكَ. رواه البخاري. وعن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت؛ أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية؛ فأنزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾. صحيح، أخرجه النسائي في «التفسير»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «أسباب النزول» ص ٨٥.

(ش): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسٍ فَلَقُوا عَدُوًّا فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَانَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - تَحَرَّجُوا مِنْ غَشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) أَيْ فَهِنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. (رواه مسلم).

نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ﴿وَسَاءَ سَكِيلًا﴾ أي بشئ ذلك النكاح القبيح الخبيث طريقاً، ثم بين تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حُرِّمَ عليكم نكاح الأمهات وشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلن ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أي أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَحَلَائِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهن كما تقدم «الأمهات، البنات، الأخوات، العمات، الخالات، بنات الأخ، بنات الأخت» ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ﴾ نزل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أما للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، وكذلك أختك من الرضاع، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى «الأمهات والأخوات» وقد وضحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه السلام: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»^(١). ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم ﴿وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن، وذكر الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتهما وهذا بالإجماع^(٢) ﴿مِن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم نكاح زوجات آبائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم بخلاف من تبنيتموهم فلهم نكاح حلائلهم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي وحُرِّمَ عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفوراً لما سلف رحيماً بالعباد ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) (ش): هذا مذهب جمهور السلف والخلف، ومذهب الأئمة الأربعة. قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»

(٢/٢٥١): «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فَجَمْعُهُنَّ الْأَيْمَةُ عَلَى أَنَّ الرَّبِيَّةَ حَرَامٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي

حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ، قَالُوا: وَهَذَا الْخِطَابُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ»

أي وحرّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبّي فيحل لكم وطؤهاً بعد الاستبراء ولو كان لهنّ أزواج في دار الحرب لأنّ بالسبّي تنقطع عصمة الكافر ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: ١٠].^(١) ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هذا فرض الله عليكم ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي أحلّ لكم نكاح ما سواهنّ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهنّ المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهنّ مهورهنّ فريضةً فرضها الله عليكم بقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] ثم قال تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهنّ كقوله: ﴿فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤] قال ابن كثير: أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بمصالح العباد حكيمًا فيما شرع لهم من الأحكام ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر والمؤمنات ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهنّ المؤمنون ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهنّ قُرْبَ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ حُرَّةٍ، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي تزوجوهنّ بأمر أسيادهنّ وموافقة مواليهنّ ﴿وَأَنُوهنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ادفعوا لهنّ مهورهنّ عن طيب نفس ولا تبخسوهنّ منه شيئاً استهانة بهنّ لكونهنّ إماء مملوكات ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾ أي عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي ولا متسرات بالزنى مع أخدانهنّ قال ابن عباس: الخدنّ هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن^(٢) ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي فإذا أُحصنّ بالزواج ثم زنين فعليهنّ نصف ما على الحرائر^(٣) من عقوبة الزنى ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء لمن

(١) (ش): الاستدلال على جواز نكاح المسلم المسيئة المَرْوُجَة من كافر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، استدلال غير صحيح لأن الآية تمنع تزوّج المسلم من كافرة. وإنما الدليل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كما تقدم في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعاً.

خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن أفضل لئلا يصير الولد رقيقاً في الحديث «من أراد أن يلقي الله طاهراً مطهراً فليتكح الحرائر»^(١) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله أن يفصل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كَرَّره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي ويريد الفجرة أنبأ الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي يريد تعالى بما يسر أن يسهل عليكم أحكام الشرع ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتباع الشهوات، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله^(٢) لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تُبَحَّه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير: الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها^(٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وظُلْمًا﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظالماً لا سهواً ولا خطأً ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يُعْجِزُهُ شيء ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إن تركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عَزَّ وَجَلَّ عنها نَمَحُ عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي ندخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم، التي فيها ما لا عين

(١) (ش): رواه ابن ماجه بلفظ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مَطْهَرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِرَ» وضعفه الألباني.

(٢) (ش): تفسير الإيمان بأنه التصديق، مخالف لتعريفه عند جمهور أهل السنة، وموافق لقول المرجئة. فالإيمان عند أهل السنة: اعتقاد بالقلب - وتصديق القلب يدخل فيه أعمال القلب -، وقول باللسان وعمل بالجوارح.

يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

(٣) «مختصر ابن كثير» ٣٨٧/١.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز المرسل في ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حَرَّمَ عليكم نكاح الأمهات فهو على حذف مضاف.

٢ - الطباق في ﴿حُرِّمَتْ... وَأُجِلَّ﴾ وفي ﴿مُحْصَنِينَ... مُسَفِّحِينَ﴾ وفي ﴿كَبَّارٍ... سِقَاتِكُمْ﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب.

٣ - الكناية في ﴿الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فهو كناية عن الجماع كفولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب.

٤ - الاستعارة في ﴿فَكَاتُوهُنَّ أَجُورُهُنَّ﴾ استعار لفظ الأجور للمهور، لأن المهر يشبه الأجر في الصورة.

٥ - الجناس المغاير في ﴿تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ﴾ وفي ﴿أَرْضَعْنَكُمْ... مِنْ الرُّضْعَةِ﴾ وفي ﴿مُحْصَنَاتٍ... فَإِذَا أَحْصَيْتُ﴾ والإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

الفوائد: الأولى: استنباط العلماء في آية المحرمات القاعدة الآتية وهي «العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات».

الثانية: حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لا نكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك^(١).

الثالثة: قال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب.

الرابعة: روى سعيد بن جبیر أن رجلاً قال لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع، ولكن لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار، ذكره «القرطبي».

قال الله تعالى:

وَلَا تَنْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُكُلِّ شَيْءً عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَكَاتُوهُم نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَتَّتْ الْقَدَمَاتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُورَهُمْ فَعِظُواهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُواهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا «روائع البيان» ٤٥٧/١ فيه بحث هام.

(ش): بل قد ورد في كتب الشيعة ما يدل على تحريم الزنا الذي يسمونه زواج المتعة.

اللَّهُ كَانَتْ عَلَيْهِمْ كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ بَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خصَّ الله به كلاً من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء، ثم ذكر تعالى حقوق كل من الزوجين على الآخر، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة الشور والعصيان.

اللغة: ﴿مَوْلَى﴾ المولى: الذي يتولى غيره يقال للعبد: مولى: وللسيد مولى: لأن كلاً منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قَوَّامُونَ﴾ قوام: مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته، أي يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية ﴿قَنِينَتٌ﴾ مطيعات، وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نُشُوزُهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع، ومنه تل ناشز ويقال: نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿الْمَصَاحِجُ﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شِقَاقٌ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿بِالْجَنُبِ﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره، وأصل الجنابة: البعد ﴿مُخْتَالًا﴾ المختال: ذو الخيلاء والكبر ﴿مِثْقَالٌ﴾ وزن ﴿الْغَائِطُ﴾ الحدث وأصله المطمئن^(١) من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكني عن الحدث بالغائط.

سَبَبُ النُّزُول: أ - عن مجاهد قال: قالت «أم سلمة» يا رسول الله: يغزو الرجال ولا نغزو

(١) (ش): الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ: السَّهْلُ الْمُنْحَفِضُ.

وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) الآية^(٢).
 ب - روي أن سعد بن الربيع - وكان نقيباً من نقباء الأنصار - نشزت عليه امرأته «حبيبة بنت زيد» فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتص منه فنزلت ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»^(٣).

التفسير: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خص الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أو الدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري: نهوا عن الحسد وعن تمنى ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار قال «الطبري»: كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر^(٤) ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وسألوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهاب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل إنسان جعلنا عصبه يرثون ماله مما تركه الوالدان والأقارب من الميراث ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] وقال ابن عباس: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ نسخت^(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه. ثم بين تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه فقال ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصهم

(١) «أسباب النزول» ص ٨٥.

(٢) (ش): صحيح، أخرجه أحمد، والترمذي، و«الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «الكشاف» ١/ ٢٩٠. (ش): ضعيف، أخرجه ابن مردويه.

(٤) «الطبري» ٨/ ٢٦٧.

(٥) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨٤.

به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب قال أبو السعود: «والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك»^(١) ﴿فَالضَّالِّينَ الَّذِينَ هَلَكَ أَمْوَالُهُمْ بِالْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، قائمات بما عليهن من حقوق، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره وفي الحديث «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»^(٢) ﴿وَالَّذِي تَخَاوَفْتُمُوهُمْ﴾ هذا القسم الثاني وهن النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعاليين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح ﴿فَعِظُوهُنَّ بِمَا وَصَّيْتُ بِهِنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرُوهُنَّ﴾ أي فخوفوهن الله بطريق النصيح والإرشاد، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره^(٣)، فإن لم يرتد عن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لا يذاتهن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين! ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي وإن خشيتم أيها الحكام مخالفة وعداوة بين الزوجين فوجهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ أي عليماً بأحوال العباد حكيماً في تشريعه لهم ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره، واستوصوا بالوالدين برّاً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً

(١) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٣٣٩٩.

(٢) (ش): رواه مسلم.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨٦.

﴿وَبِذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ قال ابن عباس: هو الرفيق في السفر، وقال الزمخشري: «هو الذي صحبتك إما رفيقاً في سفر، أو جاراً ملاصقاً، أو شريكاً في تعلم علم، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك، من له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل: هي المرأة»^(١) ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي المماليك من العبيد والإماء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق، ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواظب البلغاء، ونصائح الحكماء، ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي يمتنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار: لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات، وهي مع ذلك عامة ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يخفون ما عندهم من المال والغنى، ويخفون نعمة الله عليه السلام الموجود في التوراة^(٢) ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ولا يؤمنون بالإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر، والآية في المنافقين ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعية وبأل عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله؟ قال الزمخشري: وهذا كما يقال للمنتقم: ما ضرك لو عفوت؟ وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت باراً؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة^(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يبغس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة^(٤)

(١) «الكشاف» ١/ ٣٩٣ وهذا الرأي اختيار «الطبري» أيضاً.

(٢) هذا ما رجحه «الطبري» و«أبو السعود».

(٣) «الكشاف» ١/ ٣٩٥.

(٤) (ش): الهباءة: جزء من الهباء: غبار، تراب تطيره الرِّيح ويلزق بالأشياء، أو ينبث في الهواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس.

وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا﴾ أي وإن كانت تلك الذرة حسنة يُمنّ بها ويجعلها أضعافاً كثيرة ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ويُعطى من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان؟ كيف يكون موقفهم؟ وكيف يكون حالهم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحادية الله وعصوا رسوله ﴿لَوْ سُئِيَ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي لو يدفعون في الأرض ثم سُئِيَ بِهِمْ كَمَا تُسَوَّى بِالْمَوْتِ، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْ يَأْتِ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا يَكْنُفُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه^(١). ثم أمر تعالى باجتنب الصلاة في حال السكر والجنابة فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه^(٢) أنه قال «صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُونِي فَقَرَأْتُ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ الآية^(٣) وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزال أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي وإن كنتم مرضى

(١) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل: إن الجملة معطوفة على السابق أي يودون أن يدفعوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأنهم إذا كنتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون أن تسوى بهم الأرض، انظر «الكشاف» ١/ ٣٩٦.

(ش): الجملة الاستثنائية: هي التي يُبتدأ بها معنى جديد بعد كلام سابق، كالجملة الثانية والثالثة في قولنا: «أَحْزَنْتَكَ وَشَايَةُ فُلَانٍ، لَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، إِنِّي لَمْ أَصْدُقْهَا».

(٢) (ش): سُئِلَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ تَخْصِيصِ عَلِيٍّ عليه السلام (عليه السلام) فقال: «لَا يَنْبَغِي تَخْصِيصُ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِهَذَا اللَّفْظِ بَلِ الْمَشْرُوعُ أَنْ يُقَالَ فِي حَقِّهِ وَحَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَوْ (رَحِمَهُ اللَّهُ) لِعَدَمِ الدَّلِيلِ عَلَى تَخْصِيصِهِ بِذَلِكَ، وَهَكَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ: «كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ» فَإِنَّ ذَلِكَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِذَلِكَ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُعَامَلَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَلَا يُخَصُّ بِشَيْءٍ دُونَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا». (مجموع الفتاوى ٦ / ٥٠١)

(٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. (ش): صححه الألباني.

ويضرركم الماء، أو مسافرين وأنتم مُخْدِتُونَ أو أحدثتم بيولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿أَوْ لَمْ تَسْمُوا الْمَسَاءَ﴾ قال ابن عباس: هو الجماع ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يرحص ويسهل على عباده لئلا يفعلوا في الحرج.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبدیع ما يلي:

- ١ - الإطناب في قوله ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا... نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَا﴾ وفي ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وفي ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.
- ٢ - الاستعارة ﴿مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ شبه استحقاقهم للارث وتملكهم له بالاكْتِسَاب واشتق من لفظ الاكْتِسَاب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية.
- ٣ - الكناية في ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لَمْ تَسْمُوا الْمَسَاءَ﴾ قال ابن عباس معناه: جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾ لأن فَعَّال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار.
- ٥ - السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾ يراد بها التقرير والتوبيخ.

- ٦ - جناس الاشتقاق في ﴿حَفِظْتُ... حَفِظَ﴾ وفي قوله ﴿بَشْهيدٍ... شَهِيدًا﴾.
 - ٧ - التعريض في ﴿مُتَحَاتِلًا فَخُورًا﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس.
 - ٨ - الحذف في عدة مواضع مثل ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً.
- الفوائد: الأولى:** لم يذكر الله تعالى في الآية إلا «الإصلاح» في قوله ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي للحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفريق خراب البيوت وتشيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب.
- الثانية:** ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول: لا تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليّ قاهر ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه.

الثالثة: روى البخاري «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ اقرأ عليّ القرآن فقلت يا رسول الله: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم فإني أحب أن أسمع من

غيري!! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: حسبك الآن فنظرت فإذا عيناه تذرفان^(١).

تنبيه: ورد النظم الكريم ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولو قال: بتفضيلهم عليهم لكان أخصر وأوجز ولكن التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضو من جسم الإنسان وكذلك العكس، فالرجل بمنزلة الرأس، والمرأة بمنزلة عضو على عضو، فالأذن لا تغني عن العين، واليد لا تغني عن القدم، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحد عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز.

«كلمة حول تأديب النساء»

لعل أخبت ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون: كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداء على كرامتها؟ والجواب: نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب؟ ولمن يكون؟ إن الضرب - ضرباً غير مبرح - كما ورد به الحديث الشريف^(٢) أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة؟ لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بد من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرح لكسر الغطرسة والكبرياء، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسناً وجميلاً وما أحسن ما قيل «وَعِنْدَ ذِكْرِ الْعَمَى يُسْتَحْسَنُ الْعَوْرُ» فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والإحسان والجميل ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]!

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكَثْبِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ

(١) (ش): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ». قُلْتُ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أَحْبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي». فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ «أَمْسِكْ». فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. رواه البخاري.

(٢) (ش): رواه مسلم.

سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِبَآءَ آلَسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْ نَالِكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ بَيَّأْتُمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلَى اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنَ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْمِنُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِيهِمْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيبًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَدُخْلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

سَبَبُ النُّزُولِ: روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أحرار اليهود - إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقًا نحن أم محمد؟ فقال: عرضوا عليّ دينكم فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونعمر بيت ربنا، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم!! فقال: دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلًا مما هو عليه فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ... ﴾ (١) الآية.

المناسبة: لما ذكر تعالى شيئًا من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا. . أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعادنا الله منها.

(١) «أسباب النزول» ص ٨٩، و«الطبري» ٤٦٨ / ٨.

(ش): ضعيف هذا السياق، والكوماء: الناقة العظيمة السنام. الكوماء السمينه. قرى الضيف: أضافه وأكرمه، أحسن إليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: «ألا ترى هذا الضنبر المنيبر من قوميه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجاج، وأهل السدانة، وأهل السفاية!». قال: «أنتم خير». فنزلت: ﴿إِنَّكَ شَانِئُهُ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [٤٤] والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا ﴿[النساء: ٥١، ٥٢]﴾. (رواه الطبراني والبراء وابن جرير، وصححه الألباني). (الضنبر) (وفي رواية الضنبر) بالتصغير: الرجل الفرد الضعيف الدليل بلا أهل وعقب وناصر. أي أبتر لا عقب له ولا أخ فإذا مات انقطع ذكره.

اللغة: ﴿وَرَعْنَا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة^(١) ﴿وَأَقَوْمٌ﴾ أعدل وأصوب ﴿تَطْمِسُ﴾ الطمس: المحو وإذهاب أثر الشيء ﴿فَتِيلًا﴾ الفتيل: الخيط الذي في شق النواة ﴿بِالْحَبَّتِ﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملاً لكل باطل ﴿وَالطُّغُوتُ﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل.. هو اسم للشيطان ﴿نَقِيرًا﴾ النقير: النقطة التي على ظهر النواة ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الاستفهام للتعجب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم، أي: ألم تنظروا يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالين منكم فاحذروهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي حسبكم أن يكون الله ولياً وناصرًا لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم.. ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللُّعناء فقال ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإيمان سمعنا: قولك وعصينا أمرك قال مجاهد: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿وَأَسْمَعَ غَيْرُ مُسْمِعٍ﴾ أي اسمع ما نقول لا سمعت، والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لا سمعت مكرهاً ولكن اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعك الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت ﴿وَرَعْنَا﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سب من الرعونة وهي الحُمق، فكانوا سخريّة وهزواً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ولهذا قال تعالى ﴿لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإسلام قال ابن عطية: وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير^(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي عوضاً من قولهم: سمعنا وعصينا ﴿وَأَسْمَعَ وَأَنْظَرْنَا﴾ أي عوضاً عن قولهم: غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿لَكَانَ

(١) (ش): زُعُونَةٌ: رَعَنَ الشَّخْصُ: كَانَ أَهْوَاجٌ فِي مَنْطِقِهِ، حُمَقٌ وَطَاشٌ فِيمَا يَقُولُ أَوْ يَفْعَلُ.

(٢) «البحر المحيط» ٣/ ٢٦٤.

خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ﴿١﴾ أي لكان ذلك القول خيرًا لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلًا قال الزمخشري: أي ضعيفًا ركيكًا لا يُعْبَأُ بِهِ ^(١) وهو إيمانهم ببعض الكتاب والرسول.. ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنًا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي مصدقًا للتوراة ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي انطمس منها الحواس من أنفٍ أو عين أو حاجب حتى تصير كالأدبار، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس ^(٢) ﴿أَوَلَعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثمًا عظيمًا قال «الطبري»: قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركًا بالله ^(٣).. ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَكِنْ حُبُّهُمْ لِلنَّاسِ عَلَىٰ حُبِّهِمْ شَرٌّ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَدْوِيِّ﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى والاستفهام للتعجب من أمرهم قال قتادة: ذلكم أعداء الله اليهود زكوا أنفسهم فقالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقالوا: لا ذنوب لنا ^(٤) ﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَمْلِكَ مَا يَشَاءُ﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾ أي لا يُنْقِصُونَ من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثل للقلة كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ هذا تعجب من افتراءهم وكذبهم أي انظري يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزرًا بينًا وجرمًا عظيمًا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الاستفهام للتعجب والمراد بهم أيضًا اليهود أعطوا حظًا من التوراة وهم مع ذلك

(١) «الكشاف» ١/ ٤٠١.

(٢) وهو اختيار «الطبري» حيث قال: أي من قبل أن نطمس أبصارهم ونمحو آثارها فنسويها كالآقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقري.

(٣) «الطبري» ٨/ ٤٥٠.

(٤) «الطبري» ٨/ ٤٥٢.

يؤمنون بالأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الرحمن ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه قال ابن كثير: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم^(١) قال تعالى إخباراً عن ضلالهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَحْدِلَهُ نُصِيرًا﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أي أم لهم حظ من الملك؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس لهم من الملك شيء ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم، والنقير مثل في القلة كالقتيل والقطمير وهو النكتة في ظهر النواة^(٢)، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى: بل أيحسدون النبي ﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرّف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين؟ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَٰهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلاي شيء تخصون محمداً ﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءٌ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي كفى بالنار المسعرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم. ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت آثاراً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب، قال الحسن: تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فعدوا كما كانوا وقال الربيع: جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وفي الحديث «يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٠٣.

(٢) (ش): القِطْمِير: القِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ عَلَى النَّوَةِ كَاللَّفَافَةِ لَهَا، الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ بَيْنَ النَّوَةِ وَالتَّمْرَةِ. وَالنَّقِيرُ: حَفرة

مستديرة في ظهر نواة البلح.

والقتيل: خَيْطٌ فِي شَقِّ النَّوَةِ أَوْ قِشْرَةٍ فِي بطنها.

ضرسه مثل أحد»^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذب إلا بعدل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأذى والأذى قال مجاهد: مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد قال الحسن: وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحر والسموم، وفي الحديث «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»^(٢).

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بالإيجاز:

- ١ - المجاز المرسل في ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين.
- ٢ - الاستعارة في ﴿يَسْتَرْوُونَ الصَّلَافَةَ﴾ وفي ﴿يَلْدُوهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿لَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ لأن أصل الليّ قتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نَطْمِسُ وُجُوهًا﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عُميت سطورها وأشكلت حروفها.
- ٣ - الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في موضعين.
- ٤ - التعجب بلفظ الأمر في ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يَقْرَءُونَ﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار.
- ٥ - الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتفريع في ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ وفي ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾.
- ٦ - التعريض في ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ عرّض بشدة بخلهم.
- ٧ - الطباق في ﴿وُجُوهٌ... وَأَدْبَرَ﴾ وفي ﴿ءَامَنُوا... كَفَرُوا﴾.
- ٨ - جناس الاشتقاق في ﴿نَلْعَنُهُمْ... لَعَنَّا﴾ وفي ﴿يُؤْتُونَ... ءَاتَاهُمْ﴾ وفي ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.
- ٩ - الإطناب في مواضع، والحذف في مواضع.

قال الله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ

(١) أخرجه أحمد في المسند. (ش): ضعيف هذا السياق.
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ضَرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغُلَطٌ جُلْدُهُ مَسِيرَةُ ثَلَاثِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ خَرِيفًا (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي).
(٢) أخرجه الشيخان.

بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يُسَاءَلُونَ أَصَابَتْكُمْ أَمْثَلُكُمْ أَنْتُمْ كُذِّبْتُمْ بِلَاغًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَذَّبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدِيَنَّهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها.

اللغة: ﴿يَعْنَى﴾ أصلها نِعَمَ مَا أَي نِعَمُ الشَّيْءِ يعظكم به ﴿تَأْوِيلًا﴾ مَالًا وعاقبة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ الزعم: الاعتقاد الظني قال الليث: أهل العربية يقولون: زعم فلان إذا شكوا فيه فلم يعرفوا أكذب أو صدق وقال ابن دريد: أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم «زعموا مطية الكذب»^(١) ﴿وَتَوَفِيقًا﴾ تَأْلِيفًا والوفاق والوفق ضد المخالفة ﴿بَلِيغًا﴾ مؤثرًا ﴿شَجَرَ﴾ اختلف واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حَرَجًا﴾ ضيقًا وشكًا قال الواحدي: يقال للشجر الملفت الذي لا يكاد يوصل إليه حرج.

سَبَبُ التَّرْوِل: أ - روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق «عثمان بن طلحة» باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمت أنه رسول الله

(١) (ش): عن حذيفة قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بَشَسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ رَعْمًا» (رواه أبو داود وصححه الألباني). الْمَطِيَّةُ بِمَعْنَى الْمَرْكُوبِ (رَعَمُوا) الرَّعْمُ قَرِيبٌ مِنَ الظَّنِّ، أَيُّ أَسْوَأَ عَادَةٍ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَّخِذَ لَفْظَ (رَعَمُوا) مَرْكَبًا إِلَى مَقَاصِدِهِ فَيُخَبِّرَ عَنْ أَمْرِ تَقْلِيدًا مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ فَيُحْطَى.

لم أمنعه فلوى عليّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر عليّاً أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان: آذيت وأكرهت ثم جئت تترفق!! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا..﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم»^(١).

ب - عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له: «بشر» كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق: بل نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» - وهو الذي سماه الله الطاغوت - فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ ف قضى رسول الله لليهودي على المنافق، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال: تعالى نتحاكم إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكما إلى محمد ف قضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فقال عمر للمنافق: أكذلك هو؟ فقال: نعم فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد - أي مات - وقال: هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ..﴾^(٢) الآية.

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري: الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة^(٣)، والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها قال ابن كثير: يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها^(٤) ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْطِيكُمْ بِهِ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه وعد ووعد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم

(١) «الفخر الرازي» ١٠/ ١٣٨، و«أسباب النزول» ص ٩٠.

(ش): ضعيف، ذكره الثعلبي في «تفسيره» بغير سند جازماً به، وفيه زيادات منكورة. والثابت أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَ بِمَكَّةَ وَاطْمَأَنَّ النَّاسُ، خَرَجَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ، فَطَافَ بِهِ سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ، يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِخْجَنٍ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ، دَعَا عُمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكُعْبَةِ، فَقَتَحَتْ لَهُ، (أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»). وحسنه الحافظ ابن حجر). مِخْجَنٌ: عصا مُعْجَرة الرأس.

(٢) «الكشاف» ١/ ٤٠٦، و«القرطبي» ٥/ ٢٦٤. (ش): موضوع، أخرجه الثعلبي في «تفسيره».

(٣) «الكشاف» ١/ ٤٥٠.

(٤) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٥٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حسناً ومعنى، لحماً ودماً، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَزِدْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي فإن اختلفتم في أمر من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل: إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً. ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدعون الإيمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعجب من أمر من يدعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل^(١) ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت قال ابن عباس هو «كعب بن الأشرف» أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالإيمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ويريد الشيطان بما زين لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين: تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقنوا أن يدفعوا عنهم العذاب؟ ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للاعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيباً لهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام

(١) (ش): هذا التعبير خطأ، لأنه يتضمن نفْي التعجب عن الله، وقد ثبت في الأدلة أنه سبحانه يَعْجَب، والصواب أن يقول: هذا تعجب من الله.

المعسول ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن معاقبتهم للمصلحة ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿وَعَظُّهُمْ﴾ أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على ما قبلهم من المشقات وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشد تثبيتاً لإيمانهم، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وَإِذَا لَا تَجِدَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي أعطيناهم ثمرة الطاعة ثواباً كثيراً ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصدِّيقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم، وحسن رفيق أولئك الأبرار، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قبض فيها يقول ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ

النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ ﴿فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ﴾ ^(١) ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ما أعطيه المطيعون من الأجر العظيم إنما هو بمحض فضله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي وكفى به تعالى مجازيًا لمن أطاع عالمًا بمن يستحق الفضل والإحسان.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبدیع ما يلي باختصار:

- ١ - الاستفهام المراد به التعجب في ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ .
- ٢ - الالتفات في ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرُّسُولُ﴾ تفخيماً لشأن الرسول وتعظيماً لاستغفاره ولو جرى على الأصل لقال ﴿وَاسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ﴾ .
- ٣ - إيراد الأمر بصورة الإخبار وتصديره بـ ﴿إِنَّ﴾ المفيدة للتحقيق في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامثال.
- ٤ - الجناس المغاير في ﴿يُضِلُّهُمْ ضَلَالًا﴾ وفي ﴿وَقُلْ لَهُمْ... قَوْلًا﴾ وفي ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ وفي ﴿يُصْذَوْنَ... صُذُودًا﴾ وفي ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا﴾ [النساء: ٧٣] .
- ٥ - الاستعارة في قوله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس.
- ٦ - تكرير الاسم الجليل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعْظِمُكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لتربية المهابة في النفوس.
- ٧ - الإطناب في مواضع والحذف في مواضع.

فائدة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية ^(٢).

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤١١.

(ش): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - قَالَتْ - فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ: (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) قَالَتْ: فَظَنَنْتُهُ خَيْرَ حَبِيزٍ. (رواه مسلم).

(٢) أخرجه ابن مردويه.

(ش): رواه الطبراني وغيره، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وهو في «السلسلة الصحيحة» للألباني. عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، =

قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْطَأَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضَلٌّ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْكُمْ كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٥﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيْلًا ﴿٧٨﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِنِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٠﴾ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨١﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِندِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ آخِذًا كَثِيرًا ﴿٨٣﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفِيَ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسْ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٥﴾ مَن يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا ﴿٨٦﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحْيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٨﴾

المناسبة: لما حذر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذرًا من مباغته الكفار، ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المشبطين للعزائم من المنافقين وحذر المؤمنين من شرهم.

= فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] «الآية».

اللغة: ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع ثُبَّة وهي الجماعة، أي جماعة بعد جماعة ﴿بُرُوجٍ﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مُسَيَّدَةٍ﴾ مرتفعة البناء ﴿بَيْتٍ﴾ دبر الأمر ليلاً، والبيات أن يأتي العدو ليلاً ومنه قول العرب: أَمْرٌ بَيْتٌ لَيْلٍ ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبط الماء إذا استخرجته، ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿وَحَرَضَ﴾ التحريض: الحث عن الشيء ﴿تَنْكِيلًا﴾ تعذيباً والنكال: العذاب ﴿كَفَلُ﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مُقِينًا﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء قدر عليه ^(١) قَالَ الشَّاعِرُ:

وَذِي ضَعْنٍ ^(٢) كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكَانَ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِينًا

سبب النزول: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ اتَّوَا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً. فَقَالَ «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا». فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرْنَا بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ ^(٣) الآية.

التفسير: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فخيرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي ليتأخَّلَّ ويتخلفن عن الجهاد، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ^(٤) ﴿فَإِنْ أَصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي قتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي قال ذلك المنافق: قد تفضل الله عليّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأقتل ضمن من قتلوا ﴿وَلَكِنْ أَصَبَكُمْ فَضَّلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ

(١) (ش): وقيل: المُقِيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحملده.

(٢) (ش): ضَعْنٌ، ضَعْنٌ: حقد شديد، بُغْضٌ، حَسَدٌ.

(٣) «أسباب النزول» ص ٩٦، و«القرطبي» ٥/ ٢٨١. (ش): رواه النسائي وصححه الألباني وغيره.

(٤) (ش): قال الشيخ السعدي: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يتأخَّل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخوراً وجبنًا، هذا الصحيح. وقيل معناه: ليبطئن غيره أي: يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون، ولكن الأول أولى لو جهين: أحدهما: قوله ﴿مِنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين. والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضاً فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم أو جب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد. كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ إلى آخر الآيات.

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١﴾ أي ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم - متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة - يا ليتني كنت معهم في الغزو لأنال حظًا وافراً من الغنيمة، وجملة ﴿كَانَ لَمْ تَكُنْ﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام، ولما ذم تعالى المبطلين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيَهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواء غلب أو غلب أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنين: الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَى ضَامِنٍ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرِ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد؟ وقوله ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيان للمستضعفين قال ابن عباس: كنتُ أنا وأمِّي من المستضعفين، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ إِنْخَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ»^(٢) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضر عنهم قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة إذ إنها كانت موطن الكفر ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿الظَّالِمِينَ أَهْلُهَا﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً وسخر لنا من عندك ولياً وناصراً، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير ولي وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولَّى عليهم «عتاب بن أسيد» فأَنصَفَ مَظْلُومَهُمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد فقال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سام وغاية نبيلة وهي نصر دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.

الشیطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار وأعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يغلب لأن الله وليه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخدول المغلوب ولهذا قال ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي سعي الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله؟ ﴿قال الزمخشري: كيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه^(١)﴾ ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم: أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحزن وقتة وأعدوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجنبون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد من ذلك، قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين وكانوا يتحرقون لو أمروا بالقتال ليستنفوا من أعدائهم فلما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة الناس خوفاً شديداً^(٢) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ أي وقالوا جزعاً من الموت ربنا لم فرضت علينا القتال؟ ﴿لَوْ لَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ لَوْلَا لَتُحْضِيضُ بِمَعْنَى هَلَا أَي هَلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ حَتَّى نَمُوتَ بِأَجَالِنَا وَلَا نَقْتُلَ فَيَفْرَحَ بِنَا الْأَعْدَاءُ!﴾ ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي قل لهم يا محمد: إن نعيم الدنيا فإن ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتلأ أمره ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا تنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق النواة قال في «التسهيل»: إن الآية في قوم من الصحابة كانوا قد أمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به، فلما أمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام^(٣) ﴿أَتَيْنَاكُمْ كُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ أي في أي مكان وجدتم فلا بد أن يدرركم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيع فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنة من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا: هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة

(١) «الكشاف» ١/ ٤١٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤١٣.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٤٨، واختار هذا «القرطبي» وأبو حيان وهو الأرجح قال في «البحر»: إن القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى إذا أمر بشيء لا يسأل عن علته من هو خالص الإيمان ولهذا السياق بعده: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق. اهـ. «البحر» ٣/ ٩٢٨.

وجوع وشبه ذلك يقولوا هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه قال السدي: يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَلِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةً يَبْطِرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أمر ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء: الحسنه والسيئه والنعمة والنقمة كل ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿فَالِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونُ يَقْفَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم. ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ثم قال تعالى مخاطباً الرسول ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس تبلغهم شرائع الله وحسبك أن يكون الله شاهداً على رسالتك، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله، لأنه مبلغ عن الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي ويقول المنافقون: أمرك يا محمد طاعة كقول القائل «سمعاً وطاعة» فإذا خرجوا من عندك دبر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك ﴿يَكْتُبُ مَا يَنْهَوْنَ﴾ أي يأمر الحفظة بكتابه في صحائف أعمالهم ليُجَازوا عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اصفح عنهم وفوض أمرك إلى الله وثق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي فهو سبحانه يتقم لك منهم وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان هذا القرآن مختلفاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزّه عن ذلك فأخبره صدق، ونظمه بليغ، ومعانيه محكمة، فدل على أنه تنزيل الحكيم الحميد ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْحَافٍ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي إذا جاء المنافقين خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفسوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي

لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لو لا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم، ثم أمر الرسول بالجهد فقال ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود النصر ولا تهتم بتخلف المنافقين عنك ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي شجّعهم على القتال ورغّبهم فيه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا وعد من الله بكفهم ﴿عَسَى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شره الكفرة الفجار، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وفتح مكة ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعاً موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي ومن يشفع شفاعاً مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِينًا﴾ أي مقتدرًا فيجازي كل أحد بعمله ^(١) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلم أو ردّوا عليه بمثل ما سلم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ^(٢) ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد للحساب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستعارة في قوله ﴿يَشْرُوكَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة.
- ٢ - الاعتراض في ﴿كَأَنَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ .
- ٣ - التشبيه المرسل المجمل في ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ .
- ٤ - الطباق في ﴿الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ .

(١) (ش): وقيل: المُقيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمه وحمده.

(٢) (ش): الصواب أن يقال: «لا معبود بحق سواه»؛ لأن هناك معبودات بغير حق.

٥ - جناس الاشتقاق في ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وفي ﴿حَيِّتُمْ... فَحْيُوا﴾ وفي ﴿يَشْفَعُ شَفْعَةً﴾ وفي ﴿يَبْتَئُونَ... يَبْتَئُونَ﴾.

٦ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

٧ - المقابلة في قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وكذلك في قوله ﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

تنبيه: لا تعارض بين قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي كل من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فِنْ نَفْسِكُمْ﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] أو نقول: نسبة الحسنة إلى الله، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ: «الخير كله بيدك والشر ليس إليك» والله أعلم^(١).

قال الله تعالى:

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُمُهم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَقْتُمُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمُوكُمْ فَلَمَّ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ عَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ

(١) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَاتِي لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَاتِي إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رواه مسلم).

شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرِئْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَتَّبِعُونَ لَوْلَا يُقُولُوا لِمَن أَلْفَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية، عقبه بذكر نوع آخر من أحوال المنافقين الشنيعة، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الآخرة.

اللغة: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ رَدَّهم إلى الكفر أو نكسهم وأصل الركن رُدُّ الشيء مقلوبًا قَالَ الشَّاعِرُ: فَأَرْكَسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ أَنَّهُمْ كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الْإِفْكَ وَالزُّورَا ^(١) ﴿حَصَرَتْ﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿السَّلَامُ﴾ الاستسلام والانقياد ﴿تَفَقَّطُوهُمْ﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتبينوا ﴿أَرْكَسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها.

سبب النزول: أ - عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناسٌ ممن كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فأنزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّقِينَ فَتْنَيْنِ﴾ الآية فقال ﷺ: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد» أخرجه الشيخان.

ب - يروى أن «الحارث بن يزيد» كان شديدًا على النبي ﷺ فجاء مهاجرًا وهو يريد الإسلام فلقيه «عياش بن أبي ربيعة» - والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر - فقتله فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا...﴾ ^(٢) الآية.

ج - عن ابن عباس قال: لقي المسلمون رجلًا في غنيمته له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا لِمَن أَلْفَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا...﴾ ^(٣) الآية.

التفسير: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُتَنَفِّقِينَ فَتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت.

(٢) «أسباب النزول» ص ٩٧. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٣) رواه البخاري. (ش): رواه البخاري ومسلم، (غُنَيْمَةٌ) تصغير «غنم» أي قطع صغير من الغنم.

أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول لا نقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكسهم وردهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير، لأن الله حكم بضلالهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فستتوا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فُخِّدُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرمٍ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي إلا الذين ينتهون ويلجئون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحلف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلا الذين جاؤوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ولو شاء لقواهم وجراهم عليكم فقاتلوكم ﴿فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقْتُلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقتلوهم طالما سالموكم ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم قال «أبو السعود»: هم قوم من «أسد وغطفان» كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم ﴿كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي كلما دُعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقلبوا فيه على أسوأ شكل فهم شر من كل عدو شرير ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي فأسرؤهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ أي لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا على وجه الخطأ لأن الإيمان زاجر عن العدوان

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي ومن قتل مؤمناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبة مؤمنة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، وعليه كذلك دية مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين: الكفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة في مال القاتل، والدية وهي مائة من الإبل على العاقلة^(١) ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي إن كان المقتول خطأ مؤمناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لثلاثا يستعينوا بها على المسلمين ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان المقتول خطأ من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق رقبة مؤمنة ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً بخلقه حكيماً فيما شرع.. ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي ومن يُقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً فيها على الدوام، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن كما قال ابن عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً^(٢) ﴿وَعَصَبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي وبناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة^(٣) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي إذا سافرت في الجهاد لغزو الأعداء فتشبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَكُمْ لَسَتْ مُؤْمِنًا﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو خطأ سريع الزوال ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعدّه لكم من جزيل الثواب والنعيم ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومن عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي مطلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال ﴿لَا يَسْتَوِي

(١) (ش): عاقلة القاتل هم عصبته كالأب والابن والإخوة والأعمام ونحوهم.

(٢) (ش): هذا الكلام فيه خلط بين مذهب الجمهور ومذهب ابن عباس في عقوبة قتل العمد.

(٣) انظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣/ ٣٢٦، وفي ابن كثير ١/ ٤٢٢ من المختصر.

أَلْقِعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿عَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ﴿١﴾. ﴿فَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدْيَا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ». قالوا يا رسول الله وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ قَالَ «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» ﴿٢﴾ «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالشواب الوافر العظيم ﴿دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ﴿٣﴾.

البلاغة: تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبدیع أنوعاً نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ ؟ وفي ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا﴾ ؟
- ٢ - الطباق في ﴿أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وكذلك ﴿الْقَاعِدُونَ ... وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ .
- ٣ - والجناس المغاير في ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ وفي ﴿وَمَغْفِرَةٌ ... غَفُورًا﴾ .
- ٤ - الإطناب في ﴿فَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ... وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ وكذلك في ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا﴾ .
- ٥ - الاستعارة في ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله، ففيه استعارة الضرب للجهاد، واستعارة السبيل لدين الله.
- ٦ - المجاز المرسل في ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك.

الفوائد: القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد وقد قال ﷺ «من أعان على قتل مسلم مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه النسائي. (ش): رواه البخاري

بين عينيه آيس من رحمة الله»^(١) وفي الحديث أيضًا «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن»^(٢)

تنبيه: أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبة مؤمنة والحكمة في هذا - والله أعلم - أنه لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياء لها، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فَمَا لِلَّذِينَ فَضَّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]^(٣). وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون»^(٤) ومن يطلع على معاملة الزوج في أمريكا يتضح له جليًا صحة ما نقول وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب، باسم الاستعمار والانتداب، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنية الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد؟!

قال الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَبَلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٢١﴾ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أخرجه ابن ماجه. (ش): رواه ابن ماجه بلفظ: مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، ، وضعفه الألباني).

(٢) أخرجه البيهقي. (ش): رواه الترمذي بلفظ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» ، وصححه الألباني).

(٣) (ش): لم يتبين لي وجه استدلال المؤلف بالآية على حقوق الرقيق، فقد قال في تفسيرها: أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستتروا في ذلك مع عبيدهم، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟

(٤) (ش): عَنْ عَلِيٍّ ت قَالَ كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». رواه أبو داود وصححه الألباني. وقال ﷺ: وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» رواه البخاري

لَوْ تَعَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتُوءَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب، ثم لما كان الجهاد والهجرة سببا لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافرين وطريقة صلاة الخوف، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتهم ظلماً بالسرقة وإدانة الذين تأمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة.

اللغة: ﴿مُرْعَمًا﴾ مذهباً ومتحولاً مشتق من الرغام وهو التراب قال ابن قتيبة: المرغام والمهاجر واحد وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مرغاماً لهم أي مغاضباً فقليل للمذهب مرغاماً وسمي مصيرة إلى النبي ﷺ هجرة^(١) ﴿وَسَعَةً﴾ اتساعاً في الرزق ﴿نَقَصَرُوا﴾ القصر: النقص يقال قصر صلاته إذا صلى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد: فيها ثلاث لغات قصرت الصلاة وقصرتها وأقصرتها^(٢) ﴿تَعَفَّلُوا﴾ الغفلة: السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿مَوْقُوتًا﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجهم عن وقته ﴿تَهِنُوا﴾

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤.

(٢) «القرطبي» ٣٦٠/٥.

تضعفوا ﴿خَصِيمًا﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خَوَانًا﴾ مبالغاً في الخيانة.

سَبَبُ النَّزُول: أ - عن ابن عباس قال: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة - وكانوا يستخفون بالإسلام - فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروهوا على الخروج فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ...﴾^(١) الآية.

ب - كان ضمرة بن القيس^(٢) من المستضعفين بمكة وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣).

ج - روي أن رجلاً من الأنصار يقال له «طُعْمَة بن أبيرق» من بني ظفر سرق درعاً من جاره «قتادة ابن النعمان» في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند «زيد بن السمين» اليهودي فالتصمت الدرع عند طُعْمَة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال: دفعها إلي طُعْمَة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾ الآية وهرب طُعْمَة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله^(٤).

(١) «مختصر ابن كثير» ٤٢٧/١. (ش): أخرجه «الطبري» في «جامع البيان»، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) (ش): الصواب: ضمرة بن جندب.

(٣) «القرطبي» ٣٤٩/٥. (ش): صحيح، أخرجه أبو يعلى في «المسند»، والطبراني في «المعجم الكبير» وابن أبي حاتم في «تفسيره».

(٤) «أبو السعود» ٣٨٠/١. (ش): ضعيف جداً، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان». ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِوْكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا * =

= روى الترمذي عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منّا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله بعض العرب ثم يقول قال فلان كذا وكذا قال فلان كذا وكذا فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث أو كما قال الرجل وقالوا ابن أبيرق قالها قال وكان أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت صافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت صافطة من الشام فابتاع عمو رفاعه بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مشربة له وفي المشربة سلاح ودرع وسيف فعدى عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح فلما أصبح أتاني عمي رفاعه فقال يا ابن أخي إنه قد عدى علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال فتحسبنا في الدار وسألنا فقبل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا ترى فيما ترى إلا على بعض طعامكم. قال وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا ليبد بن سهل رجل منا له صلاح وإسلام فلما سمع ليبد اخترط سيفه وقال أنا أسرق فوالله ليخالطكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة. قالوا إليك عنها أيها الرجل فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها فقال لي عمي يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت إن أهل بيت منّا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعه بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليروا علينا سلاحنا فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ « سأمروني بذلك ». فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة فكلّموه في ذلك فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار فقالوا يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمداً إلى أهل بيت منّا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبوت. قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فكلّمته فقال « عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة ». قال فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك فأتاني عمي رفاعه فقال يا ابن أخي ما صنعت فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال الله المستعان فلم يلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ بنى أبيرق « واستغفر الله » أي مما قلت لقتادة « إن الله كان غفوراً رحيماً لا تجادل عن الذين يفتنون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله » إلى قوله « غفوراً رحيماً » أي لو استغفروا الله لعفّر لهم « ومن يكسب أثماً فإنما يكسبه على نفسه » إلى قوله « إنما ميسناً » قولهم للبيد « ولولا فضل الله عليك ورحمته » إلى قوله « فسوف تؤثيه أجراً عظيماً » فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعه فقال قتادة لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عسى أو عشى في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت بالسلاح قال يا ابن أخي هو في سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشرّكين فنزل على سلاقة بنت سعد ابن سمية فأنزل الله « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضاللاً بعيداً « فلما نزل على سلاقة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره فأخذت رحله فوضعتها على رأسها ثم خرجت به فرمت به في الأبطح ثم قالت أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير. (حسنه الألباني).

شرح الحديث: (ثم ينحله بعض العرب) أي ينسبه إليهم من النحلة وهي النسبة بالباطل (أو كما قال الرجل) أو للشك من الراوي، أي قال لفظ الخبيث. أو قال لفظ الرجل (وقال ابن أبيرق قالها) أي هذه الأشعار (وكانوا) أي بنو أبيرق (إذا كان له يسار) أي غنى (فقدمت صافطة من الشام) الضافط والضفاط: من يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، والمكاري: الذي يكرى الأحمال وكانوا يؤمّنون قوماً من الألباط يحملون =

التفسير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تقول لهم الملائكة في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتذرين: كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً: أليست أرض الله واسعة فهاجروا من دار الكفر إلى دار تقدر فيها إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة؟ قال تعالى بياناً لجزائهم ﴿فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي مقرهم النار وساءت مقرًا ومصيرًا، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفًا كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿قَالُوا لَيْكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختيارًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فرارًا بدينه من كيد الأعداء يجد مهاجرًا ومتجولًا في الأرض كبيرًا يُراغم به أنف عدوه ويجد سعة في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابع على العباد ﴿يَاعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجرًا من أرض الشرك فارًا بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾ أي سائرًا على العباد رحيمًا بهم ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

= إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما) من الدرمك (هو الدقيق الحواري) (فجعلته) أي فوضعه (في مشربة) المشربة: الغرفة (سلاح) بكسر السين وهو اسم جامع لآلات الحرب والقتال يذكر ويؤنث (دِرْعٌ وَسَيْفٌ) بيان لسلاح (فُعِدِي عَلَيْهِ) بصيغة المجهول أي سرق ماله وظلم، (فَنُقِبْتُ) من التقيب أو النقب (فَتَحَسَّنَا) التجسس: تطلب معرفة الأخبار، (رَجُلٌ مِنَّا) أي هو رجل منا (اخترط سيفه) أي استلّه (إليك عنها) أي نتج عنها (فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا) أي لست بصاحب السرفة (حتى لم نشك أنهم) أي بني أبيرق (أهل جفاء) الجفاء: ترك البر والصلة. (ولا تكن للخائنين خصيمًا) بني أبيرق، قوله بني أبيرق تفسير وبيان للخائنين (مِمَّا قُلْتَ لِقَادَةَ)، هذا تفسير وبيان لما أمر الله نبيه بالاستغفار منه (أي لو استغفروا الله لغفر لهم) هذا تفسير يتعلق بقوله تعالى في الآية، (وَمَنْ يَفْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)، (قَوْلُهُمْ لِلْبَيْدِ) هذا تفسير لقوله تعالى في الآية، (ثُمَّ يَرَمُ بِهِ بَرِيئًا). (وَكَانَ سَيْخُنَا قَدْ عَسَا أَوْ عَسَا: أَي قُلْ بَصَرُهُ وَصَعْفٌ. عَسَا: أَي كَبُرَ وَأَسَنَّ. وَكُنْتُ أَرَى) بِضَمِّ الهمزة أي أَظُنُّ (مَدْخُولًا) الدخل: العيب والغش والفساد، يعني أن إيمانه كان مترلرلاً فيه نفاق.

أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴿١﴾ أَي وَإِذَا سافرتُم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِذَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي إِنْ خَشِيتُمْ أَنْ يَنَالَكُم مَكْرُوهُ مِنْ أَعْدَائِكُمُ الْكَفَرَةِ، وَذَكَّرُ الْخَوْفَ وَلَيْسَ لِلشَّرْطِ وَإِنَّمَا هُوَ لِيَبَيِّنَ الْوَاقِعَ حَيْثُ كَانَتْ أَسْفَارُهُمْ لَا تَخْلُو مِنْ خَوْفِ الْعَدُوِّ لَكثَرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ «يَعْلَى بْنُ أُمِيَّةٍ» قَالَ قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: إِنْ اللَّهُ يَقُولُ ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ» ^(١) ﴿إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أَي إِنْ الْكَافِرِينَ أَعْدَاءُ لَكُمْ مَظْهُرُونَ لِلْعَدَاوَةِ وَلَا يَمْنَعُهُمْ فُرْصَةُ اشْتِغَالِكُمُ بِمَنَاجَاةِ اللَّهِ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْفُكُم طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أَي وَإِذَا كُنْتُمْ مَعَهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَهُمْ يَصْلُونَ صَلَاةَ الْخَوْفِ فِي الْحَرْبِ فَلَتَأْتُمْ بِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مَدْجُجُونَ بِأَسْلِحَتِهِمْ احْتِبَاطًا وَلِتَقُمَ الطَّائِفَةُ الْآخَرَى فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ﴾ أَي إِذَا فَرَغْتَ الطَّائِفَةُ الْأُولَى مِنَ الصَّلَاةِ فَلَتَأْتِ الطَّائِفَةُ الَّتِي لَمْ تَصَلِّ إِلَى مَكَانِهَا لِتُصَلِّيَ خَلْفَكَ ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أَي وَلْيَكُونُوا حَذَرِينَ مِنْ عَدُوِّهِمْ مُتَأَمِّينَ لِقِتَالِهِمْ بِحُمْلِهِمُ السِّلَاحَ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً﴾ أَي تَمْنَى أَعْدَاؤُكُمْ أَنْ تَشْغَلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَأْخُذُوكُمْ غَرَةً، وَيَشْدُوا عَلَيْكُمْ شِدَّةً وَاحِدَةً فَيَقْتُلُونَكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْلُونَ وَالْمَعْنَى لَا تَتَشَاغَلُوا بِأَجْمَعِكُمْ بِالصَّلَاةِ فَيَتِمَكَّنُ عَدُوُّكُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنْ أَقِيمُوهَا عَلَى مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أَي لَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ فِي حَالَةِ الْمَطَرِ أَوِ الْمَرَضِ أَنْ لَا تَحْمِلُوا أَسْلِحَتَكُمْ إِذَا ضَعَفْتُمْ عَنْهَا ﴿وَحَذُّوا حِذْرَكُمْ﴾ أَي كُونُوا مُتَقِظِينَ وَاحْتَرِزُوا مِنْ عَدُوِّكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَي أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُخْزِيًا مَعَ الْإِهَانَةِ، رَوَى ابْنُ كَثِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي عِيَاشٍ الزُّرْقِيِّ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْسَفَانَ فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَبْلَةِ - فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ فَقَالُوا: لَقَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غُرَّتَهُمْ ثُمَّ قَالُوا: يَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ قَالَ: فَنَزَلَ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ» ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ ^(٢) الْآيَةُ ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ فَقَالَ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ أَي إِذَا فَرَغْتُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي حَالِ قِيَامِكُمْ وَقُعُودِكُمْ وَاضْطِجَاعِكُمْ وَادْكُرُوهُ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ لَعَلَّ يَنْصَرِّكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «مختصر ابن كثير» ٤٣١ / ١. (ش): صحيح، أخرجه وأبو داود، والنسائي، وابن حبان.

فَاقِمُْوا الصَّلَاةَ ﴿١﴾ أَيِ إِذَا أَمَنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ فَأَتَمُّوا الصَّلَاةَ وَأَقِيمُوا كَمَا أَمَرْتُمْ بِخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيعِ شُرُوطِهَا ﴿٢﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿٣﴾ أَيِ فَرَضًا مَحْدُودًا بِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا عَنْهُ، ثُمَّ حَثَّ تَعَالَى عَلَى الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ فَقَالَ ﴿٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ﴿٥﴾ أَيِ لَا تَضَعُفُوا فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ بَلْ جِدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٦﴾ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَكُمْ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿٧﴾ أَيِ إِنْ كُنْتُمْ تَتَأْلَمُونَ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقِتَالِ فَإِنَّهُمْ يَتَأْلَمُونَ أَيْضًا مِنْهُ كَمَا تَتَأْلَمُونَ وَلَكِنْكُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الشَّهَادَةَ وَالْمُثُوبَةَ وَالنَّصْرَ حَيْثُ لَا يَرْجُونَهُ هُمْ ﴿٨﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩﴾ أَيِ عَلِيمًا بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ حَكِيمًا فِي تَشْرِيعِهِ وَتَدْبِيرِهِ، قَالَ «القرطبي»: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي حَرْبِ أَحَدٍ حَيْثُ أَمَرَ ﷺ بِالْخُرُوجِ فِي آثَارِ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ بِالْمُسْلِمِينَ جَرَاحَاتٌ وَكَانَ أَمْرٌ أَلَّا يُخْرَجَ مَعَهُ إِلَّا مَنْ حَضَرَ فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ ^(١)، وَقِيلَ: هَذَا فِي كُلِّ جِهَادٍ ^(٢). ﴿١٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْكِتَابِ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴿١١﴾ أَيِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا عَرَفَكَ اللَّهُ وَأَوْحَى بِهِ إِلَيْكَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٣﴾ أَيِ لَا تَكُنْ مَدَافِعًا وَمَخَاصِمًا عَنِ الْخَائِنِينَ تَجَادَلُ وَتُدَافِعُ عَنْهُمْ، وَالْمُرَادُ بِهِ «طُعْمَةُ بْنُ أَبِي رَيْقٍ» وَجَمَاعَتُهُ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴿١٥﴾ أَيِ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ مِنَ الدَّفَاعِ عَنْ طُعْمَةَ اطْمِئْنَانًا لَشَهَادَةِ قَوْمِهِ بِصِلَاحِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾ أَيِ مَبَالِغًا فِي الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ يَسْتَغْفِرُهُ ﴿١٨﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿١٩﴾ أَيِ لَا تَخَاصِمِ وَتُدَافِعِ عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَعَاصِي ﴿٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿٢١﴾ أَيِ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مَفْرَطًا فِي الْخِيَانَةِ مِنْهُمْ كَمَا فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ ﴿٢٢﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ أَيِ يَسْتَرُونَ مِنَ النَّاسِ خَوْفًا وَحَيَاءً وَلَا يَسْتَحْيُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَحَقُّ بِأَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ وَيَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴿٢٥﴾ أَيِ وَهُوَ مَعَهُمْ جَلَّ وَعَلَا عَالَمٌ بِهِمْ وَبِأَحْوَالِهِمْ يَسْمَعُ مَا يَدْبُرُونَهُ فِي الْخِفَاءِ وَيُضْمِرُونَهُ فِي السَّرِّ مِنْ رَمِي الْبَرِيِّ وَشَهَادَةِ الزُّورِ وَالْحَلْفِ الْكَاذِبِ ﴿٢٦﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿٢٧﴾ أَيِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهَا وَلَا يَفُوتُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى تَوْبِيخًا لِقَوْمِ طُعْمَةَ ﴿٢٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ أَيِ هَآ أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْقَوْمِ دَافَعْتُمْ عَنِ السَّارِقِ وَالْخَائِنِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿٣٠﴾ فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٣١﴾ أَيِ فَمَنْ يَدَافِعُ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِذَا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابِهِ؟ ﴿٣٢﴾ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٣٣﴾؟؟ أَيِ مَنْ يَتَوَلَّى الدَّفَاعَ عَنْهُمْ وَنَصْرَتَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَانْتِقَامِهِ؟ ثُمَّ دَعَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ فَقَالَ ﴿٣٤﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴿٣٥﴾ أَيِ مَنْ يَعْمَلُ أَمْرًا قَبِيحًا يَسُوءُ بِهِ غَيْرَهُ كَاثِمًا بَرِيءًا أَوْ يَرْتَكِبُ جَرِيمَةً يَظْلِمُ بِهَا نَفْسَهُ

(١) (ش): ذكره «القرطبي»، بدون إسناد.

(٢) «القرطبي» ٣٧٤/٥.

كالسرقة ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحْدِ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن عباس: عرض الله التوبة بهذه الآية على بني أبيرق ﴿إِنَّمَا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي من يقترب إنَّمَا متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إنَّمَا كبيراً ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرماً وذنباً واضحاً، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لَهَمَّتْ جماعة منهم أن يضلوك عن الحق، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يرئ أصحابهم «طُعْمَةً» من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وبأل إضلالهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما يضررونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى يُنزل عليك الكتاب ويوحى إليك بالأحكام ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمر الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الحسيمة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبدیع أنواعاً نوجزها فيما يلي:

- ١ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتفريع في ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ ؟ وفي ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ؟
- ٢ - إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ﴾ أريد بها صلاة الخوف.
- ٣ - الجناس المغاير في ﴿يَعْقُو ... عَفُوًا﴾ وفي ﴿يُهَاجِرُ ... مُهَاجِرًا﴾ وفي ﴿يَخْتَانُونَ ... خَوَانًا﴾ وفي ﴿يَسْتَغْفِرُ ... عَفُورًا﴾ .
- ٤ - إطلاق الجمع على الواحد في ﴿تَوَفَّيْهُمْ أَلَمَلَيْكَةً﴾ يراد به ملك الموت وذكر بصيغة الجمع تفخيماً له وتعظيماً لشأنه^(١).
- ٥ - طباق السلب ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ .
- ٦ - الإطناب بكرر لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ .

(١) (ش): ملك الموت واحد كما هو ظاهر حديث الصحيحين أن موسى عليه السلام جاءه ملك الموت فقال «أَجِبْ رَبَّكَ»، وكما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] غير أن له أعواناً. قال الله تعالى: ﴿تَوَفَّيْتُهُمْ رُسُلَنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٧].

قال الله تعالى:

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذْنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَالَتُهُمْ وَلَا مُنِيبَتُهُمْ وَلَا مُرْتَبَتُهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَاتُ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْمَتُهُمْ فَلْيَغْيِرْكُ خَلْقُ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَن أَحْسَنَ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تَوْلُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعُونَ أَن تَكَحُّوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِفِينَ مِّنَ الْوُلَدِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِن أَمْرًا خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَعْدِلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَنفَرَا يُعَنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَن اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يُشَاءُ يَذْهَبْكُمْ أَهْلَ النَّاسِ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة طُعْمَة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتأميرهم في السرّ لإيقاع البريء بها، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السرّ يعلمه الله، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح،

ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذرٌ من الشيطان وطرق إغوائه، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إمّا بالوفاق أو بالفراق.

اللغة: ﴿نَجَوْنَهُمْ﴾ النجوى: السرُّ بين الاثنين قال الواحدي: ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يُشَاقِقِ﴾ يخالف والشقاق: الخلاف مع العداوة لأن كلاً من المتخالفين يكون في شقٍ غير شق الآخر ﴿مَرِيداً﴾ المريد: العاقي المتمرد من مرد إذا عتا وتجرى قال الأزهري: مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو ما رد ومريد ﴿فَلْيَبَيِّنَنَّ﴾ البتَّ: القطع، ومنه سيفٌ باتٍ أي قاطع ﴿مَحِيصاً﴾ مهرباً من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل «وقعوا في حَيْصٍ بَيْصٍ» أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خَلِيلاً﴾ من الخلّة وهي صفاء المودة قال ثعلب: سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته قال بشار:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِهِ سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلاً^(١)
﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة.

سبب النزول: أ- لما سرق «طعمة بن أبيرق» وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى^(٢)﴾ الآية.

ب- قال قتادة: تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين وكتابتنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ^(٣)﴾ الآية.

التفسير: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقةٍ ليعطيها سراً أو أمر بطاعة الله قال «الطبري»: المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين^(٤) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ أي فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة قال الصاوي: والتعبير بـ «سوف» إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ أي يخالف أمر الرسول

(١) «القرطبي» ٤٠٠/٥.

(٢) «القرطبي» ٣٨٥/٥. (ش): راجع حديث الترمذي الطويل الذي حسنه الألباني والمذكور في هامش قبل صفحات.

(٣) «أسباب النزول» ص ١٠٤. (ش): أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٤) «الطبري» ٢٠١/٩.

فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿تَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي فقد بُعد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا﴾ أي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث «اللات والعزى ومناة» قال في التسهيل: كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة^(١) ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَخُذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي أبعد الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً: لأتخذن من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة: «أَخْرِجْ بَعْثُ النَّارِ. قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ» ﴿وَلَا تُضِلَّنَّهُمْ وَلَا تُنِيتَهُمْ﴾ لأصرفنهم عن طريق الهدى وأعدهم الأمان الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئْكُمْ أَذَاتُ الْأَنْعَامِ﴾ أي ولأمرنهم بتقطيع آذان الأنعام قال قتادة: يعني تشقيقتها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة^(٢) كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ بَنَاتُ خَلْقِ اللَّهِ﴾ أي ولأمرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل: المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي^(٣) وإحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ومن يتول الشيطان ويوطئه ويترك أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسران أعظم من هذا؟ ثم قال تعالى عن إبليس ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ﴾ أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالكاذب والأباطيل قال ابن كثير: هذا إخبار عن الواقع فإن

(١) هذا اختيار «الطبري» وقيل: إن المراد بالإناث الملائكة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا يَصْلَحُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ بَرٌّ ذَلِيلٌ﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله.

(٢) (ش): البَحِيرَةُ: هِيَ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَبْحَرُونَ أَذْنَهَا، أَيْ يَسْقُونَهَا شَقًّا وَاسِعًا، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا انْتَجَتْ خُمُسَةً أَبْطُنَ وَكَانَ الْخَامِسُ أَثْنَى. وَكَانُوا يَجْعَلُونَ دَرَّهَا لِلطَّوَاعِيتِ، فَلَا يَحْلِيهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَيُسَبِّغُونَهَا لِأَلْهَتِهِمْ. السَّائِبَةُ: وَهِيَ الَّتِي تُسَبَّبُ بِأَنْ يَنْذُرَهَا لِأَلْهَتِهِمْ، فَتَرَعَى حَيْثُ تَشَاءُ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَلَا يُجَزُّ صُوفُهَا، وَلَا يُحَلَبُ لَبْنُهَا إِلَّا لَصِيفٍ.

(٣) هذا مروى عن ابن عباس ومجاهد والضاحك وهو اختيار «الطبري».

الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافتري في ذلك^(١) ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً قال ابن عرفة: الغرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه، فهو مُزَيِّن الظاهر فاسد الباطن ﴿أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم ﴿وَلَا يَحِدُونَهَا مَيِّصًا﴾ أي ليس لهم منها مفر ولا مهرّب، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرآن فقال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مخلصين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي ومن أصدق من الله قولاً؟ والاستفهام معناه النفى أي لا أحد أصدق قولاً من الله قال «أبو السعود». والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه^(٢) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيتكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قومًا ألتههم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿وَلَا يَحِذُلُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٣) أي يدخلهم الله الجنة ولا ينقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف ولا والمجازي أرحم الراحمين! وإنما قال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ليبين أن الطاعة لا تنفع من دون الإيمان، ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي مطيع لله مجتنب لنواهيه ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي صديقاً اصطفاه لمحبهته وخلته قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات

(١) «مختصر ابن كثير» ٤٣٩/١.

(٢) «أبو السعود» ٣٨٤/١.

(٣) (ش): النقيير: حفرة مستديرة في ظهر نواة البلح. والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللغافة لها، القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة. والفيل: خيط في شق النواة أو قشرة في بطنها.

المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ^(١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع لذلك، لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي قل لهم يا محمد: يبين الله لكم ما سألتكم في شأنهن ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿فِي يَتَمَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْثِقُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي ويفتيكم أيضًا في اليتيمات اللواتي ترغبن في نكاحهن لجمالهن أو لمالهن ولا تدفعون لهن مهورهن فنهاهم الله عز وجل عن ذلك قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا فإن كانت جميلة واحبها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرسًا ولا يحمل سلاحًا ولا يقاتل عدوًا فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وما تفعلوه من عدل وبر في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير: وهذا تهيب على فعل الخيرات وامثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشب وأجمل منها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحدهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني ^(٢) ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي والصلح خير من الفراق ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقوقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها

(١) «مختصر ابن كثير» ٤٢٢/١.

(ش:) وفي هذه الآية، إثبات صفة الخلّة لله - وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

(٢) «مختصر ابن كثير» ٤٤٣/١.

وَأَحَبَّ غَيْرَهَا ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكُم عليه أوفر الجزاء^(١).. ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسووا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَآ كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة، شبهت بالشيء المعلق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه، فإن الله يغنيه بفضله ولطفه، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجة، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيمًا في تدبيره لهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغن عن العباد وهو المالك لما في السماوات والأرض ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي غنياً عن خلقه، محموداً في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظاً لأعمال عبادته ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على ذلك ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأخس ولا يطلب الأعلى؟ فليسأل العبد ربه خيري الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم.

البَلَاغَةُ: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستعارة في ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ استعار الوجه للقصد والجهة وكذلك في قوله ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه

أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة^(١).

٢ - الجنس المغاير في ﴿ضَلَّ... ضَلَّلاً﴾ وفي ﴿خَسِرَ... خُسْرَانًا﴾ وفي ﴿أَحْسَنُ... مُحْسِنٌ﴾ وفي ﴿صَلَحًا... وَالصُّلَحُ﴾ وفي ﴿تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ .

٣ - التشبيه في ﴿فَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهو مرسل مجمل.

٤ - الإطناب والإيجاز في عدة مواضع.

تنبيه: العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع الآية السابقة ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣] وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول «اللهم هذا قسَمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(٢) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فَتَذَرُوهَا كَأْمُلَعَةٍ﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ «المجددين» من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تَرُدُّهُ الشريعة الغراء، والسنة النبوية المطهرة، وكفانا الله شر علماء السوء.

قال الله تعالى :

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِأَلْفُسٍ شَهَادَةِ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالَّذِينَ أَلْزَمَ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَبْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ
ءَايَةَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَرْتَبِصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ فَالُوا
أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ
خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ الرَّاغِبِينَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ

(١) «تلخيص البيان» ص ٢٦.

(٢) (ش): (رواه أبو داود وضعفه الألباني. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُفْضِلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِسْمِ مِنْ مَكْنَاهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَسِّتُ عِنْدَهَا. (رواه أبو داود ، وصححه الألباني).

بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا
بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا
يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

المناسبة: لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً، وحذر من إتباع الهوى، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة، والكتب والرسل، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما له من العذاب والنكال في دركات الجحيم.

اللغة: ﴿تَلَوُا﴾ اللي: الدفع يقال لويت فلاناً حقه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث «ليّ الواجد ظلم» أي مظل الغني ظلم^(١) ﴿يُخَوِّضُوا﴾ الخوض: الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نَسْتَحِذُ﴾ الاستحواذ: الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿أَسْتَحِذُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩] ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ الذبذبة: التحريك والاضطراب يقال ذبذبه فتذبذب والمذبذب المتردد بين أمرين ﴿الدَّرَكُ﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس: الدَّرَكُ لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض، والدركات بعضها أسفل من بعض^(٢). التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي ما من أمتكم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قَوَّامِينَ﴾ حتى لا يكون منهم جورٌ أبداً ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي تقيمون شهادتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحمًا وإشفاقًا ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا هَوًى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير: أي لا يحملنكم الهوى

(١) (ش): قَالَ «مَظْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» رواه البخاري. وَقَالَ ﷺ «لِيَ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتُهُ». رواه البخاري.
قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ يُحِلُّ عِرْضَهُ يُعْلِظُ لَهُ، وَعُقُوبَتُهُ يُحْبَسُ لَهُ.

(٢) البحر ٣/ ٣٨٠.

والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل على كل حال^(١)
﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ لَعَنْتُمُ الْمُشْرِكِينَ لَا يَفْعَلْ لَهُمْ الشَّيْءُ مِنْ دُونِ إِلَهِكُمْ إِنَّهُمْ لَرَجِسُونَ﴾ أي وإن تلّوّا أو لعنتم المشركين عن شهادة الحق أو تعرضوا عن إقامتها رأساً
﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فبجائزكم عليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
أي اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه ﴿وَالْكُتُبِ الَّتِي نَزَّلْنَا عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي
نزل على محمد ﷺ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها
من قبل القرآن قال «أبو السعود»: المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية^(٢)
﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر
بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ هذه الآية في المنافقين^(٣) آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا
ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس: دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي
ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير: يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى
الإيمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له
ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى^(٤) ولهذا قال تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ
اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى
الجنة قال الزمخشري: ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة لم يُقبل منهم ولم
يُغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب
ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب أنه يموت على شر حال^(٥)،
ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبر تعالى بلفظ
﴿بَشِّرْ﴾ تهكمًا بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكُفْرَيْنَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أولئك هم الذين يوالمون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً
لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أَيَّبْنِعُوكَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ أي أيطلبون
بموالات الكفار القوة والعلبة؟ والاستفهام إنكاري أي إنّ الكفار لا عزة لهم فكيف تُبغّي منهم!
﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي العزة لله ولأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهيج على طلب
العزة من جناب الله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي نزل عليكم في القرآن، والخطاب لمن

(۱) «مختصر ابن کثیر» ۱/ ۴۴۷.

(٢) «أبو السعود» ١/٣٨٩.

(٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعباسى ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة «الطبرى»

(۴) «مختصر ابن کثیر» ۱/ ۴۴۸.

(٥) «الكشاف» ١/ ٤٤٧.

أظهر الإيمان من مؤمن ومناقق ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكفر به الكافرون ويستهزئ به المستهزئون ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي لا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر ويتركوا الخوض في القرآن ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ أي إنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم لأن المرء مع من أحب، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.. ثم ذكر تعالى تربصهم السوء بالمؤمنين فقال ﴿الَّذِينَ يَرَبَّضُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون بكم الدوائر ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي غلبة على الأعداء وغيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي ظفر عليكم يا معشر المؤمنين ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتهم عليهم؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نوالكم ولا نترك أحداً يؤذيكم قال تعالى بيانا لمآل الفريقين ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي لن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين فيسبواهم ويستأصلوهم^(١) قال ابن كثير: وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة^(٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطال الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقق دمائهم، وقد أعد لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، فسمى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبأل خداعهم راجع عليهم ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ أي يصلون وهم متناقلون متكاسلون، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

(١) ذكر «القرطبي» خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل: إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه «الطبري» حيث قال: يعني حجة يوم القيامة واستدل له بما روى أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال: ادن مني ثم قرأ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة وقد ضعف هذا الرأي ابن العربي انظر «القرطبي» ٥/ ٤١٩.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٤٩.

أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى السعادة والهدى، ثم حذر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا الله حجة بالغة عليكم أنكم منافقون؟ قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن حجة، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله، والنار دركات كما أن الجنة درجات ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي لن تجد لهم لواء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي أعمالهم ونياتهم ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي تمسكوا بكتاب الله ودينه ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في زمرة يوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أي أي منفعة له سبحانه في عذابكم؟ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم؟ ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل.

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - المبالغة في الصيغة في ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي مبالغين في العدل.
- ٢ - الطباق بين ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ وبين ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ .
- ٣ - الجناس الناقص في ﴿ءَامَنُوا ءَامَنُوا﴾ لتغير الشكل.
- ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿يُخَذِّعُونَ... خَدَعَهُمْ﴾ وفي ﴿جَامِعٌ... جَمِيعًا﴾ وفي ﴿شَكَرْتُمْ... شَاكِرًا﴾ .
- ٥ - الأسلوب التهكمي في ﴿بَشِيرَ الْمُتَنَفِّقِينَ﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار تهكماً.
- ٦ - الاستعارة في ﴿وَهُوَ خَدَعَهُمْ﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل، والله تعالى منزّه عن الخداع^(١).

(١) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة... إلخ. الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة... إلخ. الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً، =

٧ - الاستفهام الإنكاري في ﴿أَيَنْتَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ﴾ والغرض منه التقرير والتوبيخ.
الفوائد: الأولى: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا﴾ ليس تكراراً وإنما معناه اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي ثبتنا على الصراط المستقيم.

الثانية: سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحاً عظيماً ونسبه إليه ﴿فَتَحَّ مِنَ اللَّهِ﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين، وتخصيس حظ الكافرين.

الثالثة: قال المفسرون: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعيرة، ثم سقرن ثم الجحيم، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها، كذا في البحر.

تنبيه: المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعَفَّرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وأما المنافق فشرط عليه أربعاً: التوبة، والإصلاح، والاعتصام، وإخلاص الدين له فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فدل على أن المنافقين شر من كفر به وأولاهم بمقتته، وأبعدهم من الإنابة

= ويمكن أن تكون نقصاً، على حسب الحال التي تذكر فيها. فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كملاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء. فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كملاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كملاً في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً. لأنه حينئذ لا يكون كملاً. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا. وقوله: وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. وقوله: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وقوله: وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسن وإن كان من العبد قبيحاً سيئاً لأنه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه.

إليه ثم قال ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولم يقل «وسوف يؤتيهم» بغضاً لهم وإِعْرَاضاً عنهم وتفضيلاً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه.

قال الله تعالى:

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِنَائِتِ اللَّهِ وَقُلْنَا لَهُمُ الْآيَاتُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقُولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ عَلَىٰ مَرْبَمٍ مُتَنَبِّئًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبايح، إلا في حق من زاد ضرره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر، ثم تحدث عن اليهود وعدد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله، وعبادتهم للعجل وادعائهم صلب المسيح، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة.

اللغة: ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً ﴿مُتَنَبِّئًا﴾ البهتان: الكذب الذي يُتَحِيرُ فيه من شدته وعظمته ﴿شُبِّهَ﴾ وقع الشبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿الرَّاْسِيخُونَ﴾ المتمكنون من العلم.

سَبَبُ النُّزُولِ: روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملةً فأنزل الله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾ (١) الآية (٢).

التفسير: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي لا يحب الله الفحش في القول والإيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء قال ابن عباس: المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً (٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي سمياً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عن أساء إليكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذه، قال الحسن يعفوا عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى (٤) حث تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفوٌ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟! ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسول كفراً بالله تعالى ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ التفريق بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإسلام دين الله الذي بعث به رسله (٥) ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان ولا واسطة بينهما ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإيمان ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي صدقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمد ﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ﴾ أي سنعطيهم ثوابهم الكامل

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٣.

(٢) (ش): ضعيف جداً، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان».

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٤٥٢.

(٤) «أبو السعود» ١/ ٣٩٣.

(٥) «الطبري» ٩/ ٣٥٤.

على الإيمان بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أرفع وأشنع تسلياً للنبي ﷺ للتأسي بالرسول فقال ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي سألوا موسى رؤية الله عز وجل عياناً ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الضُّعْفَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وقلق البحر وغيرها قال «أبو السعود»: وهذه المسألة - وهي طلب رؤية الله - وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم^(١) ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي عفونا عما ارتكبهوه مع عظيم جريمتهم وخيانتهم ﴿وَعَاثَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي حجة ظاهرة تظهر صدقة وصحة نبوته قال «الطبري»: وتلك الحجة هي الآيات البينات التي أتاه الله إياها^(٢) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا باب بيت المقدس مُطَّاطِئِينَ رءوسكم خضوعاً لله فخالفوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاء ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً مؤكداً ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّيثَقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق لعناهم وأذللناهم و ﴿مَا﴾ لتأكيد المعنى ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِثَايِبَاتِ اللَّهِ﴾ أي وبجحودهم بالقرآن العظيم ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ الْآيَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قولهم للنبي ﷺ قلوبنا مغطاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي بل ختم تعالى عليها بسبب الكفر والضلال فلا يؤمن منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ أي وبكفرهم بعيسى عليه السلام أيضاً ورميهم مريم بالزنى وقد فضلها الله على نساء العالمين ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي قتلنا هذا الذي يزعم أنه رسول الله، وهذا إنما قالوه على سبيل «التهكم والاستهزاء» كقول فرعون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وإلا فهم يزعمون أن عيسى ابن زنى وأمه زانية ولا يعقدون أنه رسول الله قال تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي وما قتلوا عيسى

(١) «أبو السعود» ١/ ٣٩٤.

(٢) «الطبري» ٩/ ٣٦٠.

ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شبهه قال البيضاوي: روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وهم يظنون أنه عيسى ^(١) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لِفِي شَكِّ مَنَّهُ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله، روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلفوا فقال بعضهم هو عيسى وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصاً قد قتل واختلفوا من كان ^(٢) ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ^(٣) بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجاء الله من شرهم فرفعه إلى السماء حياً بجسده وروحه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة ^(٤) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى قيل له: أرايت إن ضربت عنق أحدهم؟ قال: يلجلج بها لسانه وكذا صحَّ عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين ^(٥) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿فِي ظُلُمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحُلَّتْ لَهُمْ﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرماً عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محللة لهم ﴿وَبَصَدَّ هِمَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ويمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد: صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة ﴿وَأَكْثَرَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبِطْلِ﴾ أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهياً لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجه ﴿لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبدالله بن

(١) البيضاوي ص ١٤١.

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٦٣.

(٣) منها ما رواه الشيخان: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِزْيِرَ، وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ» الحديث وانظر كتاب «النصریح بما تواتر فی نزول المسيح» للكشميري تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة.

(ش:) (يَضَعُ الْجُزْيَةَ) لَا يَقْبَلُهَا، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَمَنْ بَدَلَ مِنْهُمْ الْجُزْيَةَ لَمْ يَكْفَ عَنْهَا، بَلْ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ الْقَتْلَ.

(٤) اختار «الطبري» أن الضمير في: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى: لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود و«الكشاف» والجلالين.

سلام وجماعته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي يؤمنون بالكتب والأنبياء^(١) ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي أمدحُ المُقيمِينَ الصلاة؛ فهو نصبٌ على المدح ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي المعطون زكاة أموالهم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ﴿أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهـم ثوابًا جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنة.

البلاغة: تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبدیع نوجزها فيما يلي:

- ١ - الطباق بين ﴿بُذُّوا... أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وبين ﴿نُؤْمِنُ... وَنَكْفُرُ﴾.
 - ٢ - التعريض والتهكم في ﴿فَقُلْنَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته.
 - ٣ - زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ﴾ أي فبنقضهم.
 - ٤ - الاستعارة في ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها من الذكر والموعظة.
 - ٥ - الاعتراض في ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ردًا لمزاعمهم الفاسدة.
 - ٦ - الالتفات في ﴿أُولَئِكَ سَنُوْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم.
 - ٧ - المجاز المرسل في ﴿وَقُلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءُ﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض وكذلك في ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِثَايِتٍ إِلَهِ﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإنجيل ولم يكفروا بغيرهما^(٢).
- الفوائد:** قال في التسهيل: إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونونه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء، والثاني: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا: رسول الله عندهم أو بزعمكم والثالث: أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قبله وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ردُّ على اليهود وتكذيبٌ لهم وردُّ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إله أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب^(٣).

(١) (ش): وفي مقدمتهم النبي ﷺ؛ قال ﷺ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (رواه مسلم).

(٢) (ش): لما رَضُوا بفعل أسلافهم شاركوهم في الجريمة، ولما كفروا بكتابتهم واحد كفروا بالكل حقيقة لا مجازاً.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» ١/ ١٦٣.

تنبيه: دلّ قوله تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبيثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإنما صلبوه شخصاً غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونه عيسى، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرّع وبكى مع زعمهم أنه هو «الله» أو «ابن الله» وأنه جاء ليخلص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال:

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى	وَأَلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ!
أَسْلَمُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا	إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا	وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟
حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهَيْنَ الْأَعَادِي	أَتَرَاهُمْ أَرْضُوهُ أَمْ أَغَضَبُوهُ؟
فَلَيْنَ كَانَ رَاضِيًا بِأَذَاهُمْ	فَاحْمَدُوهُمْ لَا تَتَّبِعُوا عَذْبُوهُ
وَلَيْنَ كَانَ سَاخِطًا فَاتْرَكُوهُ	وَاعْبُدُوهُمْ لَا تَتَّبِعُوا غَلْبُوهُ

قال الله تعالى:

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٣٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٣٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤٠﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٤١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَٰهُ جَمِيعًا ﴿١٤٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

وَأَعْتَصِمُوا بِهِ فَمَسِدُ خُلُومِهِمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

المناسبة: لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر تعالى هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلما الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء.

اللغة: ﴿تَعْلُوا﴾ الغلو: مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يَسْتَنكِفُ﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج: مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿بُرْهَنٌ﴾ البرهان: الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ لا ذوا ولجأوا والعصمة الامتناع ﴿الْكَلَالَةُ﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم.

سَبَبُ النَّزُول: جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى قال: وأي شيء أقول فيه؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله قالوا: بلى فأنزل الله ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ الآية (١).

التفسير: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ، خصص تعالى بالذكر هؤلاء تشريفاً وتعظيماً لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى وفي تقديمه ﴿وَعَائِشَةَ دَاوُدَ زُورًا﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال «القرطبي»: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما

هي حِكْمٌ ومواعظ^(١) ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي وخصَّ الله موسى بأن كلمه بلا واسطة ولهذا سُمي الكليم، وإنما أكَّد ﴿تَكْلِيمًا﴾ رفعا لاحتمال المجاز قال ثعلب: لولا التأكيد لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلانا بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولا فلما قال تكلِيمًا لم يكن إلا كلاما مسموعا من الله تعالى^(٢) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أرسل إليَّ رسول لآمنت وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزا في ملكه حكيما في صنعه، ثم ذكر تعالى ردًا على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالا بعيدا لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ قال الزمخشري: أي جمعوا بين الكفر والمعاصي^(٣) ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْغِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلدين فيها أبداً ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشرعية السمحة من عند ربكم ﴿فَقَامُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي صدقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيرا لكم ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ لو له ما في الكون ملكا وخالقا وعبداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليما بأحوال العباد حكيما فيما دبره لهم، ولما ردَّ تعالى على شبه اليهود فيما سبق أخذ في الرد على ضلالات

(١) «القرطبي» ٦.

(٢) البحر ٣/٣٩.

(٣) وقال «الطبري»: أي جحدوا رسالة محمد ﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر.

النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحد في أمر الدين بإفراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد^(١) واتخاذ الصاحبة والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي ما عيسى إلا رسول من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي وقد خلق بكلمته تعالى «كن» من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي ذو روح مُبْتَدَأَةٌ من الله^(٢) وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، أو الله ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن

(١) (ش): الحلول والاتحاد من العقائد الكُفْرِيَّة: والحلول: هو الاعتقاد بحلول الله - عز وجل - في مخلوقاته، أو بعض مخلوقاته. وينقسم الحلول إلى قسمين: ١- حلول عام: وهو اعتقاد أن الله تعالى قد حلَّ في كل شيء. ٢- حلول خاص: وهو اعتقاد أن الله - جل وعلا - قد حلَّ في بعض مخلوقاته، كاعتقاد بعض فرق النصارى أن الله جل وعلا - حلَّ بعيسى عليه السلام -، وكذلك اعتقاد بعض غلاة الرافضة - كالنصيرية - أن الله - عز وجل - حلَّ في علي بن أبي طالب، وأنه هو الإله؛ حيث حلت فيه الألوهية، وذلك من عقائدهم الأساسية. والاتحاد: هو الاعتقاد باتحاد الله - عز وجل - بمخلوقاته، أو ببعض مخلوقاته. أي: اعتقاد أن وجود الكائنات أو بعضها هو عين وجود الله تعالى. و«الاتحاد» ينقسم إلى قسمين: ١- الاتحاد العام - وهو ما يطلق عليه أيضاً: «وحدة الوجود» - وهو اعتقاد كون الوجود هو عين الله عز وجل. بمعنى: أن الخالق متحد بالمخلوقات جميعها، وهذا هو معنى «وحدة الوجود»، والقائلون به يسمون «الاتحادية»، أو «أهل وحدة الوجود»، كابن الفارض، وابن عربي، وغيرهما. ٢- الاتحاد الخاص: هو اعتقاد أن الله عز وجل اتحد ببعض المخلوقات دون بعض. فالقائلون بذلك نزهوه من الاتحاد بالأشياء القادرة القبيحة، فقالوا: إنه اتحد بالأنبياء، أو الصالحين، أو الفلاسفة، أو غيرهم، فصاروا هم عين وجود الله جل وعلا. الفرق بينهما يتلخص فيما يلي: ١- أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد. ٢- أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال. ومن الأمثلة التي يتيبن بها الفرق بين الحلول والاتحاد: أ. السُّكَّر إذا وضعته في الماء دون تحريك: فهو حلول؛ لأنه ثم ذاتان، أما إذا حركته فذاب في الماء: صار اتحاداً؛ لأنه لا يقبل أن ينفصل مرة أخرى. أما لو وضعت شيئاً آخر في الماء كأن تضع حصة: فهذا يسمى حلولاً، لا اتحاداً؛ لأن الحصة شيء، والماء شيء آخر، وهما قابلان للانفصال. ولا ريب أن القول بالحلول أو الاتحاد هو من أعظم الكفر والإلحاد - عياداً بالله - ولكن الاتحاد أشد من الحلول؛ لأنه اعتقاد ذات واحدة، بخلاف الحلول، ثم إن القول بأنه اتحد في كل شيء أعظم من القول بأنه اتحد في بعض مخلوقاته. وبالجملة: فإن اعتقاد «الحلول والاتحاد» اعتقاد ظاهر البطلان، وقد جاء الإسلام بمحوه من عقول الناس؛ لأنه اعتقاد مأخوذ من مذاهب وفلسفات ووثنيات هندية ويونانية ويهودية ونصرانية وغيرها، تقوم على الدجل، والخرافة.

(٢) (ش): ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي من الأرواح التي خلقها الله عز وجل.

نِسْبَةِ الْمُرَكَّبِ إِلَيْهِ ^(١) ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي تنزه الله عن أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد معين لأنه مالك كل شيء، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إله عن أن يكون عبداً لله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكون عبيداً لله ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيعذبهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي يوفيههم ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي بإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأما الذين أنفوا وتعظموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ فَذَجَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود ^(٢) ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والد أو ولد من يرثه ﴿إِنْ أَمْرُهُ أَهْلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي قل لهم من مات وليس له والد أو ولد وهي الكلاله ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿وَهُوَ بَرِئُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا

(١) (ش): ليس هذا من تعبيرات السلف. والتركيب لم يرد نفيه ولا إثباته في حق الله تعالى فيجب السكوت عنه، والحق أن يقال ما قاله الله عن نفسه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. والأصل الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، فلا يتجاوز القرآن والحديث.

(٢) (ش): فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

وَيَسَاءَ فَلَلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴿١﴾ أَي وَإِنْ كَانَ الْوَرِثَةُ مَخْتَلِطِينَ إِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ فَلِلذَكَرِ مِنْهُمْ مِثْلُ نَصِيبِ الْأُنثَى ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أَي يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ خَشْيَةً أَنْ تَضِلُّوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَي يَعْلَمُ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُكُمْ وَمَنْفَعَتُكُمْ فَهُوَ تَعَالَى الْعَالَمِ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

البلاغَة: ١ - تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى «مرسلاً مفصلاً» .

٢ - قوله ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم «النصارى» بدليل قوله بعده ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ وهي قوله النصارى.

٣ - قوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة.

٤ - في قوله ﴿يَشْهَدُونَ... شَهِيدًا﴾ جناس الاشتقاق.

الفوائد: لفظة «من» تكون للتبويض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيدي ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما في السماوات وما في الأرض جزءاً منه فانقطع النصراني وأسلم، وفرح الرشيدي بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة عظيمة^(١).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء»